

الباب الثاني

الموجود المصري في افريقيا في الفترة

ما بين

١٨٦٣ م — ١٨٧٩ م

obeikandi.com

الفصل السابع .

الثروة البشرية والفناء الرق

لم تؤد الإجراءات التي اتخذتها مصر بشأن وقف تجارة الرقيق في أفريقيا في الفترة السابقة على عصر اسماعيل الى الفناء هذه التجارة التي كانت متصلة في البلاد وذات جذور عميقة في الكيان الاجتماعي والاقتصادي لسكان وادي النيل ، فكانت المنازل في مصر مثلا لا تخلو من العبيد والجواري الذين كانوا يعملون كخدم ، حتى أصبح طموح السيدات في مصر هو أن يمتلكن عبدا او جارية ، وكذلك كان الحال في السودان الشمالي فكان السكان يستخدمون العبيد في زراعة القطن ، وربما في رعي دوابهم (١) .

يبدو أن السبب في عدم الفناء الرق في أفريقيا في الفترة السابقة على عصر اسماعيل كان يرجع الى انتشار هذه التجارة على نطاق واسع ، وخاصة بعد فتح النيل الأبيض للملاحة ، والى انعدام الرقابة على منافذ الطرق التي كانت تستخدم بواسطة الجلابة ، وكذلك الى اهمال مديري المديرينات في العمل الجاد على الفائها ، وربما رجع ذلك أيضا الى ان حكام مصر كانوا غير راغبين في الفائها .

ولما تولى اسماعيل حكم مصر عام ١٨٦٣ م كانت مشكلة الرق من المشاكل الملحة التي تستدعي حلا جذريا حتى يستتب الأمن ويعم الرخاء كل البلدان الأفريقية فاضطره ذلك الى الاسراع في العمل على وقف هذه التجارة وخاصة بعد ان قضى عليها في معظم الدول الأوروبية والمستعمرات البريطانية (٢) ولقد تمكن اسماعيل في فترة حكمه من أن يقوم بتشديد صرح امبراطورية

(١) Pierre Crabites : Ismail the Malignant Khedive P. 72.

(٢) انظر الفصل الاول من الباب الاول .

مترامية الأطراف ، شملت كل من دارفور ومنطقة بحر الغزال وأعلى النيل ،
وأفريقيا الشرقية حتى قسم مايو (١٢) .

ولكى يتضح اسماعيل على هذه التجارة في أفريقيا اتخذ بعض الإجراءات
التي يمكن بها القضاء عليها ، وكان أول هذه الإجراءات انه أصدر تعليماته
الى حاكم السودان ، والى مديري المديريات ، يحثهم فيها على ضرورة العمل
على عتق ما يملكه الجلالة من الرقيق الأسود ، بعد ذلك يحدث هؤلاء الرقيق
على شهادات عتقهم ، ثم يعودون بالتالى الى اوطانهم تحت حماية الحكمدارية .
وفى حالة عدم رغبة هؤلاء العبيد فى الرجوع الى بلادهم لخوفهم من وقوعهم
مرة ثانية فى ايدى الجلالة تقوم الحكمدارية بتوزيعهم على الأعمال المختلفة ،
شأنهم فى ذلك شأن رعايا الحكومة المصرية ، بالإضافة الى ذلك فان
الحكمدارية كان عليها أن تربي أولادهم ، وتزوج بناتهم (٤) .

وكان من الإجراءات التى اتخذها اسماعيل لوقف تجارة الرقيق الأسود
انه أمر بمصادرة المراكب التى تعمل فى النس الأبيض والى تضبط محملة
بالرقيق وقد تم بالفعل ضبط سبعين مركبا فى فترة قصيرة وتم تحرير ماضبط
عبيدا من عبيد (٥) و نفس الوقت أمر اسماعيل بتشديد الرقابة على سمس
الشركة العزيزية المصرية التى تعمل فى البحر الأحمر وحذرها من نقل الرقيق
الأسود من سواكن ومصوع وغيرها من موانئ البحر الأحمر الى الموانئ
الأخرى (٦) علاوة على ذلك أرسل حملة عسكرية الى منطقة أعالي النيل (٧)
وذلك لمهاجمة مراكز تجارة الرقيق فى المنطقة الواقعة بين الخرطوم
وغندوكرو (٨) وعين على رأس هذه الحملة السير صمويل بيكر الذى زوده بسلطة

(٣) د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص ١٧٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٠ .

Dr. Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and slavery in the Sudan. P. 93.

(٦) د. محمد فؤاد شكرى : المصدر السابق ص ١٧١ .

(٧) Pierre Crabites : Gordon in the Sudan and slavery. P. 28.

(٨) Dauleday and company Inc : Exploring Africa and Asia. P. 3,6.

مطلقة ، حتى يكون له الحرية فى اتخاذ القرارات التى تتطلبها الحملة وكان من أهم أهداف هذه الحملة :

— القضاء على تجارة الرقيق فى منطقة أعالى النيل ، وتدمير مراكزها التجارية فى هذه الجهات ، بالإضافة الى إخضاع هذه المنطقة للسيادة المصرية .

— تنظيم حركة التجارة المشروعة فى هذه البلاد .

— فتح طريق الملاحة بين النيل الأبيض والبحيرات العظمى .

— تأسيس سلسلة من المحطات العسكرية والمراكز التجارية التى تمتد من الخرطوم شمالا وحتى بحيرة البرت جنوبا ، بحيث تبلغ المسافة بين المحطة والأخرى مسير ثلاثة أيام .

يبدو أن هذه الحملة نجحت فى تنفيذ بعض المهام الموكلة اليها وفشلت فى تنفيذ البعض الآخر ، فقد نجحت فى نشر الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد التى تم اكتشافها والتى خضعت للسيادة المصرية وفى هذا الصدد يقول صمويل بيكر ما نصه :

« انه أثناء حكم الخديو إسماعيل انتشر الأمن والطمأنينة فى ربوع البلدان الأفريقية التى خضعت لنفوذه ، ابتداء من الاسكندرية وحتى منابع النيل ، فقد أصبح المغامر الأوربى يسير فى هذه البلدان دون التعرض لأى مخاطر ، بل انه أصبح يمشى فى أمن أكثر من المواطن الانجليزى الذى كان يسير بعد الغروب فى الهايدبارك (٩) .

ومن ناحية أخرى فإن هذه الحملة فشلت فى القضاء على تجارة الرقيق فى هذه البلاد ، وربما يرجع ذلك الى عدة عوامل منها عدم كفاءتها العسكرية وعدم مقدرتها على احكام الرقابة على الجلابة وتدمير مراكزهم التجارية ومنها المصاعب الطبيعية التى تعرضت لها الحملة من غابات وأحراش وأدغال ومستنقعات، ومنها سوء قيادة صمويل بيكر، ومنها نقص العتاد والذخيرة — بالإضافة الى مقاومة القبائل النيلية لها .

Pierre Crabites : Ismail the Malignant. op. cit. pp. 72-73,77 (٩)

وكان من أشهر تجار الرقيق العرب في منطقة أعالي النيل أبو السعود صبر تاجر الرقيق المشهور محمد أحمد العقاد (١٠) فقد قام أبو السعود بتحريض القبائل النيلية ، كي تقوم بمقاومة الحملة حتى يشغلها بعيدا عن تنفيذ مهمتها الأصلية وهى القضاء على تجارة الرقيق ومهاجة أوكارهم . وإلى جانب تجار الرقيق العرب وجد عدد من تجار الرقيق الأوربيين الذين كان من أشهرهم التاجر المالطى ديونو Debone وقريبه امبيلي Ambile ثم الفرنسى ملزك Melzak وغيرهم كثيرون (١١) .

ولقد أنشأ اسماعيل ديوان الويركو الذى يختص بتحصيل الضرائب من اصحاب المراكب الذين تعمل سفنهم فى النيل الأبيض ، وقد غرضت هذه الضرائب على العمال والحراس والجمالين والبحارة ، وتراوحت قيمة هذه الضريبة فيما بين ٢٠٠،١٠٠ قرشا (١٢) وقد اختص هذا الديوان أيضا بمنح تصاريح للسفن التى تبحر فى النيل الأبيض الى المديرية الاستوائية (١٣) ولم يكف اسماعيل بكل هذه الاجراءات ، بل طلب من حكمدار السودان أن يحرر الرقيق الذين يعملون فى جميع المديريات السودانية خدما ، وخاصة عندما يتقدمون بالشكوى الى أى جهة حكومية من سوء المعاملة التى يلقونها من أسيادهم ، ففى هذه الحالة تقوم الجهة الحكومية باستدعاء صاحب الخادم او الجارية وتقوم بمساءلته ، فيما نسب اليه من قبل رقيقه ، فاذا اتضح أنه أساء معاملة العبد أو الجارية بالضرب، ففى الحال تقوم الجهة الحكومية بتحرير شهادة عتق الى هذا العبد أو الجارية ، ولما اذا حدث غير ذلك ، ففى هذه الحالة يعاد العبد أو الجارية بالتالى الى سيده بعد تلقيه بالنصائح اللازمة (١٤) .

(١٠) د. جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، ص ٤١ .

(١١) محمد فؤاد شكرى ، المصدر السابق ص ١٦٧ .

(١٢) Dr. Shukry M.F. : op. cit. p. 137.

(١٣) د / محمد فؤاد شكرى ، نفس المصدر ص ١٧١ .

(١٤) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٦ عابدين صادر تلغراف رقم

٤٢ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

لم يلجأ الرقيق الخدم الى الجهات الحكومية فقط ، بل لجأوا الى الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم والى قناصل الدول الأوروبية في السودان لكى تساعدهم الكنيسة وهؤلاء القناصل في حصولهم على شهادات العتق وقد بلغ عدد هؤلاء العبيد الذين لجأوا الى الكنيسة الكاثوليكية والى القناصل حوالى ٥٠ عبداً ، ولكن حكمدار السودان تمكن من القاء القبض عليهم ومنحهم شهادات العتق الخاصة بتحريرهم والحق الشباب الذكور منهم بالجهادية ، وأما الفتيات فقد أطلق سراحهن (١٥) وربما يرجع السبب في الحاق الشباب الذكور من هؤلاء السيد بالجيش الى حاجة اسماعيل لهم ، وخاصة عندما بدأت العلاقة المصرية الحبشية تسوء بينما لم يكن في حاجة اليهم في بداية حكمه فكان يتم عتقهم بمجرد تحريرهم من أيدي الجلابة .

بعد ذلك أمر اسماعيل حكمدار السودان بأن يقوم بحصر عدد الزرائب والمشاريع الموجودة في مديرية بحر الغزال ، وفي مديرية خط الاستواء ، التى كان أصحابها يستخدمونها كمراكز لجميع لتجارتهم سواء أكانت من العبيد أم من الفيل وريش النعام (١٦) وكان قد تقرر أنه في حالة استخدام هذه الزرائب والمشاريع كمراكز لتجارة الرقيق ، ففى هذه الحالة يصادر ما فيها من عبيد الى جانب الأشياء التجارية الأخرى لصالح الحكومة ، وفي حالة عدم ممارستها لتجارة الرقيق ، تهدم باستثناء عدم مصادرة ما بها من مواد تجارية أخرى ، بل تترك لأصحابها ، زيادة على ذلك فان اسماعيل طلب من حكمدار السودان عدم منح أى تصاريح جديدة تخول للتجار انشاء زرائب جديدة للرقيق أو مراكز تجارية في منطقة اعالي النيل (١٧) .

أدت هذه الإجراءات الخاصة بوقف تجارة الرقيق الى حصول الحكمدارية على أعداد كبيرة من العبيد السود ، فقرر أن يلتحق منهم الذكور من الشباب

-
- (١٥) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢١ عابدين وارد تلغراف رقم ٩٣ في ٢٧ رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .
- (١٦) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٦ عابدين صادر تلغراف رقم ٣٩٧ ص ٦٢ في ١٥ شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .
- (١٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٦ عابدين صورة التلغراف رقم ٤٨٠ ص ٧٥ في ٢٨ شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

بالجهادية ، وأما كبار السن ، فتقرر أن يلتحقوا بالمزارع ، وأما الصغار منهم سواء أكانوا من الذكور أم الإناث فتقرر أن يلتحقوا بالكتاتيب ، لتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة ، وتقرر أيضا في حالة رغبة كبار السن والصغار من هؤلاء الرقيق العودة الى بلادهم فلا مانع من أن يعودوا بعد أن تسلمهم الحكمدارية شهادات عنتهم على شرط أن تقوم الحكمدارية بتوصيلهم الى نهاية حدودها (١٨) . وكان قد تقرر أيضا أن تقوم الحكمدارية بتزويج الفتيات اللاتي يرغبن في الزواج منهم الى جنود الجهادية وذلك على حسب ما يقضى به الكتاب والسنة .

وكان اسماعيل قد طلب من حكمدار السودان أن يعين عددا من الجواسيس ، وذلك لمراقبة تحركات تجار الرقيق وقد تمكن هؤلاء الجواسيس من معرفة جهة تابعة لدارفور تسمى كامبيه وكان سكانها يمارسون تجارة الرقيق ، وأخبروا الحكمدارية بذلك ، فسرت بدورها قوة عسكرية قوامها ٤٠٠ جندي من الخيالة وذلك للقضاء على تجار الرقيق فيها وهناك تمكنوا من ضبط ما يقرب من ١٦٠٠ عبد كان منهم ١٠٠٠ من الذكور ، ٦٠٠ من النساء والصبيان والأطفال ، وكانوا جميعا في حالة سيئة بسبب تعرضهم للمرض والجوع ، ولكن بعد وصولهم الى مركز الحكمدارية ، منح السليم منهم شهادات العتق وبعض المواد الغذائية تمهيدا لارسالهم الى بلادهم الأصلية ، وأما المرضى منهم والذين بلغ عددهم نحو ٩٠٠ شخص تركوا للملاج في مركز الأردى وخصص لهم طبيب للإشراف على معالجتهم ، بالإضافة الى تزويدهم بما يلزمهم من غذاء . وكان مدير كردفان أيضا قد تمكن من ضبط ٥٩١ عبدا كان منهم ٣٥٩ من الذكور ، وزعوا على النحو التالي :

١٥٧ على الجهادية .

٩٦ على المدارس لتعليمهم القراءة والكتابة ، ٦ ستة كانوا قد توفوا وأما الإناث فبلغ عددهن ٣٣٢ جارية وزعن كما يلي :

١٩ كن سرارى

١٦ توفين .

(١٨) محافظ أبحاث السودان - دفتر ١٥ عابدين ، صادر تلفراف رقم ٤٠١ في ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ .

٢٩٧ زوجن لجنود الجهادية (١٩)

لما علم اسماعيل بعدد الرقيق الذى تم تحريره من ايدى الجلابة ، طلب من حكمدار السودان الا يسمح لهم بالرحيل الى بلادهم ، وفى هذا الصدد يقول ما نصه :

« انهم ربما يقعون فريسة فى ايدى الجلابة مرة اخرى » وطلب منه ايضا ان يلحق الشباب الذكور منهم بالجهادية (٢٠) ويبدو أن الفرض من ضم هؤلاء العبيد الى الجهادية هو حاجة اسماعيل الى زيادة عدد جيشه ، وخاصة عندما بدأ يرسل البعثات الكشفية الى المناطق النائية ، وعندما زادت علاقته سوءا مع الحبشة ونظرا لتزايد عدد الرقيق المحرر وخاصة من الشباب الذكور الذين تتراوح أعمارهم فيما بين ١٨ ، ٢٢ سنة ، فقد طلب حكمدار السودان من اسماعيل أن يوافقه على ارسال هؤلاء العبيد الى مصر ، كى يتم تدريبهم فيها عسكريا ، ثم يعودون بالقتال الى السودان ، ليقوموا بالخدمة العسكرية فى بلادهم (٢١) لأنهم لا يتأثرون بمنأخها القاسى ، بخلاف الجنود المصريين الذين كانوا لايميلون الى الخدمة فى البلاد السودانية ، وذلك لأنهم كانوا يتعرضون للأمراض الخطيرة ، وقد وافق اسماعيل على مطلب الحكمدار على شرط أن يرسل هذه الاعداد على دفعات . ونتيجة لسوء العلاقات مع الحبشة وحاجة اسماعيل الى زيادة قواته المحاربة وامكانية اعتماده على أبناء السودان طلب من حكمدار السودان ان يقوم بشراء العبيد الذين يعملون لدى السكان الوطنيين ، ويرسلهم الى مصر الى جانب العبيد الذين يتم تحريرهم من تجار الرقيق ، وقد تراوح سعر العبد الذى تم شراؤه من الاهالى بنحو ٨٠٠ قرشا وكان الحكمدار قد خير الاهالى بين حصولهم على اثمان هؤلاء العبيد نقدا أو ان يعطوهم للحكمдарية فى مقابل أن تخصم اثمانهم من قيمة الضرائب المقررة عليهم (٢٢) .

-
- (١٩) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٨٧٥ ، وثيقة ٢ ص ١١٠ فى ٢٩ جماد أول عام ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م .
(٢٠) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٠ صادر تلفراف ص ٩١ رقم ٥٥٥ فى ٢٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م .
(٢١) محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٢٨ عابدين ، وارد تلفراف رقم ٣٢٢ ص ٤٨ فى ٢٧ شوال ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م .
(٢٢) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٢ وارد تلفراف رقم ١١١ ص ١٦ فى ١٨ رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

يبدو ان العبيد الذين تم الحصول عليهم بالمجان ، وبالشراء لم يفوا بحاجة اسماعيل مما اضطره ذلك الى ان يطلب من محافظ سواحل البحر الاحمر ، ان يجند الوطنيين من الشباب الذكور من أبناء الصومال واشترط ان تتراوح اعمارهم فيما بين ١٩ ، ٢٢ سنة وتقرر ان تتراوح مدة خدمتهم بالجيش فيما بين ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ سنوات وطلب منه أيضا ان يأخذ عليهم اقرارات معتمدة من مشايخهم ومن عمدتهم تنفيذ امثالهم لاحكام القوانين العسكرية وربما تنفيذ أيضا انهم دخلوا الخدمة العسكرية بمحض ارادتهم ، وحتى يتجنب الخديو أية معارضة او نقد يوجه اليه من جانب القناصل الاوربيين الموجودين في بعض موانئ البحر الاحمر الغربية ، وحتى لا يهتم أيضا بعدم محاربته للارق في أفريقيا ، ومن الملاحظ ان اسماعيل لم يتخذ مثل هذه الاجراءات في بقية البلدان الأفريقية الأخرى لعل هذا كان لخلوها من القناصل الاوربيين . وطلب اسماعيل كذلك من المحافظ ان يرسل العدد الذي يتم تجنيده الى مصر على دفعات ، بحيث يتراوح عدد الدفعة فيما بين ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ جندي (٢٣) . زيادة على ذلك فانه طلب من حاكم السودان ان يقوم بشراء العبيد من الجلاية بحيث لاتضع القيود الحديدية في أيديهم حتى لا يشعروا بأنهم رقيق ، وطلب منه أيضا ان لا يشتري العبيد من الجهات التي يوجد بها غوردون باشا (٢٤) . ومن المرجح ان اسماعيل لم يكن جادا في وقف تجارة الرقيق ، لأنها فيما يبدو كانت تتعارض مع مصالحه العسكرية والاقتصادية لذلك نجده يطلب من مدير هرر ان يقوم بشراء العبيد من تجار الرقيق ، ثم يقوم بتدريبهم على استخدام الاسلحة التي تعمل بالكبسول ، بعد ذلك يتم تدريبهم على الاسلحة الرامتون (٢٥) تمهيدا لانضمامهم الى صفوف القوات المسلحة .

لم يكتف اسماعيل بكل هذه الاجراءات الخاصة بجلب أكبر عدد من العبيد سواء كان ذلك بطريق تحريرهم من أيدي الجلاية ، أو بالشراء من الأهالي ،

-
- (٢٣) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٠ أوامر عربي ص ١٨ في ١٦ رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .
- (٢٤) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٢ عابدين ، وثيقة ١٠٧ في ١٦ صفر سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .
- (٢٥) وثيقة ٣٣ في ١٢ شوال سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

أو بالتجنيد ، بل انه طلب من كبير تجار دارفور عام ١٨٧٦م أن يرسل الى مصر اكبر عدد ممكن من العبيد على أن يحصل في مقابلهم على بضائع مصرية (٢٦) فمن المرجح أن يكون السبب في ذلك هو حاجة اسماعيل الملحة الى تزويد جيشه باكبر عدد منهم وخاصة عندما قرر أن ينتقم من الحبشة نتيجة لهزيمة جيشه امام قواتها في عام ١٨٧٥م في واقعتى جونديت ولوسه .

ومن الملاحظ أن اسماعيل بعد أن أنهى حروبه مع الحبشة أصبح في غير حاجة الى العبيد السود لذلك نجده يتخذ بعض الخطوات الجادة — لالغاء تجارة الرق فقد عين موريس باشا في وظيفة مفتش بحيث يقوم بالتفتيش على السفن التى تهر بالبحر الأحمر والتي تحمل رقيقا ، ففى حالة عثوره على احدى السفن التى تحمل رقيقا يحرر ما عليها من رقيق وينحهم شهادات العتق ، وتجرى محاكمة طاقم السفينة وتجار الرقيق .

لم يستمر موريس باشا في مهمته مدة طويلة ، بل عين بدلا منه المستر مالكولم ضابط البحرية الانجليزى (٢٧) وبمجرد وصول مالكولم الى بربرة قام بتفتيش الأماكن التى كان من المحتمل أن يوجد بها رقيق ، ولكنه لم يجد أى عدد من العبيد ، كما قام أيضا بالمرور على زيلع ، ومن بعدها توجه الى تجره للتفتيش عليها (٢٨) . وأثناء قيامه برحلته التفتيشية وجد أن تجارة الرقيق لاتزال مستمرة وعلى نطاق واسع ، وخاصة في المنطقة الواقعة بين مينائى زيلع وتاجورة ، وكان يقوم بهذه التجارة أسرة أبو بكر شحيم ، فاضطر مالكولم الى القاء القبض على افراد هذه الأسرة واحالة قضيتهم على حكام السودان ، غوردون باشا ، وذلك للنظر فيها ولكن غوردون رفض اتخاذ أى اجراء ضد هذه الأسرة خشية أن يثير أفرادها القلاقل أمام الحكومة المصرية

(٢٦) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٩ في ١٢ شوال سنة ١٢٩٢هـ الموافق سنة ١٨٧٥م .

(٢٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٨ وثيقة ٢٧ ص ١٢ في ١٢ صفر سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

(٢٨) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣١ وارد معية عربى ، ص ١٩ وثيقة ٥ في ١٧ صفر سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

في منطقة زيلع وكان ذلك في مايو سنة ١٨٧٧م ، واضطر غردون باشا الى أن يطلق سراح افراد هذه الأسرة الذين كان من بينهم أبو بكر شحيم نفسه وإزاء هذا الموقف اضطر مالكولم الى تقديم استقالته (٢٩) .

يبدو أن بريطانيا لم تكن راضية عن جميع الخطوات التي اتخذها اسماعيل بشأن العمل على إلغاء تجارة الرقيق ، ومن المرجح أيضا أنها وجدت الفرصة السانحة لكي تضع أقدامها في أفريقيا ، عندئذ طلبت من اسماعيل أن يوقع معها على معاهدة تتعهد فيها أندولتان على العمل المشترك من أجل إلغاء الرق في أفريقيا ، وربما كانت بريطانيا ترمي من وراء هذا الى وضع العراقيل أمام المشروعات الاقتصادية لبعض الدول الأوروبية التي تعتمد أساسا على الأيدي العاملة التي يتم الحصول عليها من قارة أفريقيا عن طريق الشراء، والتي تستخدم في الأعمال الزراعية ثم في الأعمال الصناعية فيما بعد (٣٠) .

وافق اسماعيل على التوقيع على هذه المعاهدة على الرغم من أنها سوف تصيب مشروعاته العسكرية والاقتصادية بالشلل ، ولكنه وافق في مقابل اعتراف بريطانيا بالسيادة المصرية على أفريقيا الشرقية حتى رأس حاءون (٣١) بالإضافة الى ذلك فإن بريطانيا قامت بشراء نصيب مصر من اسهم قناة السويس ، لكي يسدد اسماعيل أرباح ديونه المتراكمة من عام ١٨٧٥م والتي بلغت في جملتها أربعة ملايين جنيه مصرى وفي هذا الصدد يقول جون برايت John Bright أحد أقطاب حزب الأحرار ما نصه :

« انه يعتبر صفقة أسهم الخديو ضربة كبرى وجهت الى تماسك الإمبراطورية العثمانية وسلامة أراضيها (٣٢) » .

(٢٩) د. محمد فؤاد شكرى ، المصدر السابق ص ٢١١ .

(٣٠) د. جلال الدين مصطفى يحيى : التنافس الدولى فى شرق إفريقيا ص ٢٢

(٣١) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان فى القرن ١٩ ، المصدر

السابق ص ١٣٥ .

(٣٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٨ .

وقد جاء ببنود معاهدة إلغاء الرق التى عقدت بين مصر من ناحية وبين بريطانيا من ناحية أخرى فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧م عدد من البنود ، أذكر على سبيل المثال أهم ما جاء بها : —

— يصير منع وإلغاء الاتجار فى الرقيق السودانى والحبشى بحيث لايسمح بدخوله الى مصر أو الى الجهات التابعة لها فى أفريقيا العليا وسواحل البحر الأحمر ، وتقرر أن يقوم مأمورو الحكومة فى الثغور وفى مناطق الحدود بمراقبة ضبط الرقيق الذى يوجد مع التجار ، والعمل على إعطائه حريته ، وتقرر أيضا عدم السماح بخروج الرقيق من مصر وملحقاتها الا اذا كان هذا الرقيق قد حصل على شهادات العتق .

— وقد تقرر أيضا إنشاء عدد من المأموريات (مصالح) وذلك للقيام بشئون الرقيق فى كل من الاسكندرية والوجه البحرى والقاهرة والوجه القبلى، وكان الفرض من إنشاء هذه المأموريات هو أن تقوم بمنح الرقيق المحرر شهادات العتق ، والباسبورتات التى تخول للرق الخروج أو الدخول الى مصر . وكانت كل مأمورية من هذه المأموريات تخضع لإشراف مفتش عموم الجهة التى تقع فيها المأمورية ، وكانت كل مأمورية تضم اثنين من الموظفين يشغل أحدهما وظيفة رئيس المأمورية ، ويشغل الثانى وظيفة كاتب المأمورية ، وكان الاثنان يقومان بتحرير المحاضر اللازمة للرقيق المضبوط فى السجلات الخاصة بذلك وكانت هذه المحاضر تتضمن بيانات عن سن الرقيق ، وجنسياتهم ، والجهة التى قدموا منها ، وهل حصلوا على شهادات عتق من عدمه .

— تقرر كذلك أنه فى حالة ضبط أى عدد من تجار الرقيق المحليين يصير إرسالهم الى مركز المديرية ، وذلك لإجراء التحقيق معهم تمهيدا لمحاكمتهم على حسب ما تقتضى به بنود المعاهدة ، وأما اذا كان أحد هؤلاء التجار من الأوربيين ففى هذه الحالة تحرر المحاضر اللازمة بالواقعة ثم ترسل الى نظارة الخارجية ، لإجراء اللازم نحو محاكمتهم بواسطة دولهم وكان يستثنى من ذلك التجار الانجليز الذين تقرر بشأنهم أن يرسلوا الى أقرب قنصلية إنجليزية ، كى تقوم بالتحقيق معهم .

وتقرر أيضا أنه في حالة اتهام أحد أصحاب الرقيق عبده بالسرقة -
ففى هذه الحالة تقوم مأمورية الرقيق بمنح هؤلاء العبيد شهادات العتق ثم
تقوم برفع قضيتهم الى جهة الاختصاص ، لأنها أصبحت طرفين متساويين
فى النزاع (سيد ومسود) .

— وقد جاء بنود هذه المعاهدة أيضا ، أنه تقرر وقف الأنجار فى الرقيق فى
مصر فى بحر سبع سنوات ، وفى السودان وبعض البلدان الإفريقية الأخرى .
فى ظرف اثنتى عشرة سنة أى ابتداء من تاريخ توقيع هذه المعاهدة ، بينما
تقرر أن يستمر بيع الرقيق دون توقف من عائلة الى أخرى فى خلال المدد الوارد
ذكرها بالمعاهدة والتي تقرر أن يتوقف بعد انقضائها الاتجار فى الرق بيما أو
شراء .

— وتقرر كذلك أنه فى حالة ضبط أى شخص يتجر فى الرقيق وخاصة
بعد انقضاء المدد التى حددتها بنود المعاهدة يصير مجازاته ، بالاشغال
الشاقة مدة لا تقل عن خمسة شهور ولا تزيد عن خمس سنوات وتنطبق نفس
العقوبة أيضا على الشخص الذى يحاول حرمان أى عبد من ورقة عتقه .

— وتقرر أيضا أنه فى حالة ضبط أى مركب تحمل رقيقا سودانيا كان أو
حبشيا يصير تحريره ومنحه شهادات العتق الدالة على ذلك ويحكم طاقم
هذه المركب والتجار أمام محكمة عسكرية ، وفى حالة كون هذه السفينة انجليزية
يصير تسليمها الى أقرب جهة من جهات الحكومة الانجليزية ، مثل عدن
مثلا ، كى تقوم هذه الجهة بمحاكمة طاقم هذه السفينة على حسب ماتتضى
به بنود معاهدة إلغاء الرق .

— وجاء بأحد بنود هذه المعاهدة أنه فى حالة رفض الرقيق المعتوق
الذهاب الى بلاده ورغبته فى المعيشة فى القطر المصرى ، يوزع الذكور منهم
على الأعمال التى تلائمهم ، سواء كان ذلك فى الجهادية أو فى الأعمال الزراعية
أو فى المصانع ، وأما الرقيق صغير السن ، فيصير الحاقه بالمدارس أو ببعض
الحرف الصناعية الأخرى (٣٣) .

(٣٣) محفظة ١ صورة اللائحة ونسخة المعاهدة الخاصة بمنع الاتجار
فى الرقيق فى محرم سنة ١٢٩٥ هـ الموافق ١٨٧٧ م .

وبعد أن تم توقيع معاهدة الرق بدأ غردون باشا حكمدار السودان في تنفيذ ما جاء بينودها ، وذلك باتخاذ الاجراءات التالية : —

١ — انه يجب على الحكومة المصرية أن تعتمد تملك الرقيق لأصحابه (أى قيده في السجلات) وترجع كل من هرب منه اليهم .

٢ — وفي حالة ما يثبت أن أحد الأرقاء قد عومل بقسوة من قبل صاحبه ففى هذه الحالة تقوم الحكومة باعطاء هذا العبد ورقة عتقه .

٣ — على كل مالك للرق أن يقوم بقيد اسم مملوكه في المديرية التابع لها هذا المالك ، على شرط أن يأخذ شهادة تخول له حق ملكية هذا العبد .

٤ — لا يجوز لأحد من أصحاب الرقيق أن يطلب رد عبيده الذين هربوا منه ، الا اذا كان معه تذكرة تفيد أحقيته في ملكية هؤلاء الأرقاء .

٥ — جميع الأرقاء الذين يصير بيعهم أو مبادلتهم ، ينبغى في هذه الحالة أن يكون ذلك مظهرا على التذاكر الخاصة بأصحاب الرقيق ومسجلا بالحكومة

٦ — يجب أن يوضح بالتذكرة التى تعطى لصاحب العبد اسم المديرية المستخرجة منها هذه التذكرة ، واسم صاحب الرق واسم المملوك ، ويجب أن يذكر فيها هذه العبارة « أن هذا العبد سوف يكون معتوقا بعد اثنتى عشرة سنة ، ابتداء من تاريخ توقيع معاهدة إلغاء الرق .

٧ — ليس لجميع رعايا الدول الأجنبية والقاطنين بمصر وملحقاتها الحق في تملك الرقيق ، ولا الاتجار فيه ، وللحكومة المصرية الحق في أن تعطى الحرية الى أى عبد تشاء .

٨ — كل من يجرؤ على محاربة الجهات السودانية وغزوها بفرض جلب الرقيق أو التعدى على حدود الحكمدارية ، للخروج منها ومعه رقيق يصير مجازاته بالجزاء الرادع (٣٤) .

(٣٤) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٤٦ عابدين ، وارد تليفراف رقم ٢٤٨ ص ٦٢ في ٢٢ ربيع ثان سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٧٧ م .

زيادة على ذلك فان غردون باشا كان قد طلب من الحكومة المصرية ان تشدد الحراسة على الطرق التى تربط بين دارفور وكل من حلفا واسوان ، واسنا وقنا واسيوط ، حتى لا يلجأ النخاسة الى استخدامها وقد استجابت الحكومة لهذا المطلب وكلفت مديرى هذه المديرية بمراقبة هذه الطرق (٣٥) .

لم يكف غردون بذلك بل قام بعزل عدد من المديرين المصريين ، من أمثال محمد رؤوف باشا مدير حرر ، ويوسف حسن الشلالى مدير بحر انفزال ، وعين بدلا منهم عددا من الاوربيين من أمثال شارل ريجوليه — Charl Rigolet الفرنسى الجنسية الذى عين مديرا لبلدة دارا ، وسلاتين Slatin النمساوى الجنسية الذى خلف ريجوليه فى حكم دارا ، واميلاني Emilliani الايطالى الجنسية الذى عين مديرا لبلدة كوبي ، وغردريك روسيه Rosset الالماني الجنسية الذى عين مديرا لدارفور ، وبعد موته عين بدلا منه ميسيدليا Messedaglia الايطالى الجنسية وجيكلر Giegler الالماني الجنسية والذى عين مفتشا لمعوم تلغراف السودان ، ثم عين بعد ذلك مديرا عاما لمصلحة تجارة الرقيق ، وبروت Brout الأمريكى الجنسية والذى عين مديرا عاما لمديرية خط الاستواء ، ومن بعده حكمها ادوارد شنتزر Shnitzer الالماني الجنسية وانذى سمى فيما بعد باسم امين باشا ثم جيسى Gessi الايطالى الجنسية والذى عين مدير لمديرية بحر الفوزال (٣٦) .

قام هؤلاء المديرون الجدد بتشديد الرقابة على تجارة الرقيق ، وعلى موظفى الحكمدارية أيضا ، وندلل على ذلك بأنه عندما قابل جيسى مدير بحر انفزال ، احدى ذهبيات الميرى القادمة من مديرية خط الاستواء ، وبعد تفتيشها وجدها تحمل عددا من الرقيق التابع لبحارة هذه الذمبية . فقام من نوره بابلاغ غوردون باشا بهذا الحادث فقرر بالتالى محاكمة طاقم هذه

(٣٥) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٦ عابدين صادر تلغراف فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م .
(٣٦) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان المصدر السابق ص ١٣٦ — ١٣٨ .

الذهبية ، فعوقب رئيس البحارة المدعو عبد الكريم نقورى بالسجن لمدة ٨ شهور بليمان ترسانة الخرطوم ، مع خصم ١٣٤ قرشا ، ١٥ بارة من مرتبه ، بالإضافة الى رفته من خدمة المرى ، وعوقب زميله المدعو صالح عبد الرجال بالسجن ٦ شهور بليمان ترسانة الخرطوم ، ورفته من وظيفته وعوقب انيوزياشى مصطفى أفندى فتيح بالسجن لمدة ٣١ يوما ، وذلك لانه كان يعلم بوجود رقيق بالذهبية ولم يبلغ عنه ، كما عوقب مدير فاشودة برفته من الخدمة لانه رأى الرقيق أثناء نزوله من الذهبية ولم يتخذ أى إجراء من جانبه (٣٧) .

ادت سياسة الحزم التى اتبعها غردون ومديروه ضد تجارة الرقيق الى قيام عدة ثورات محلية احداها فى بحر الغزال بقيادة سليمان بن الزبير ولكن قوات الحكمدارية التى كانت تحت قيادة جيسى تصدت له وهزمته فى ١٤ يوليو سنة ١٨٧٩م . وقامت ثورة أخرى فى دارفور بقيادة هارون أحد أمرائها ، ولكنه هزم فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٩ أمام قوات الحكمدارية وقامت ثورة ثالثة فى كردفان بقيادة الصباحى ولكنها منيت بالفشل والهزيمة (٣٨) وقد ذكر غردون فى أحد تقاريره ما نصه :

« انه بسبب خطر تجارة الرق فى النيل الأبيض فقد وجهت اليها ضربات مميته من قبل الحكمدارية فلم يستطع أحد من الاشخاص أن يقوم بها سوى غردون الذى نفذ تعليمات صاحب السمو الخديو اسماعيل الخاصة بمنع والغاء هذه التجارة (٣٩) » .

ولكن على الرغم من كل هذه المجهودات التى قام بها اسماعيل بفرض الغاء تجارة الرق ، الا انها لم تسفر عن شىء ، وظلت هذه التجارة تمارس

(٣٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣١ وارد ممية عربى ص ٥٦

ونيقة ١٣ فى ٦ شعبان سنة ١٢٩٥ هـ الموافق ١٨٧٨م .

(٣٨) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، المصدر السابق ص ١٣٨

The governor general : Summary of letters and reports of the province of the Equator. P. 33. (٣٩)

بعد حكمه مع انه كان يبدو جادا فى العمل على الفائها ، وربما يرجع ذلك الى ان حرويه مع الحبشة ، كانت قد انتهت ولم يعد فى حاجة الى تجنيد المبيد فى جيشه مثلما كان متبعيا من قبل ، ويمكن تعليل اسباب استمرار تجارة الرقيق فى افريقيا الى عدم احكام الرقابة الحازمة على تجار الرقيق الذين استغلوا الطرق العديدة فى افريقيا فى نقل تجارتهم

وهكذا نرى ان الخديو اسماعيل قد قام بمجهودات واضحة فيما يتعلق بنظرته الى ابناء السودان ، و ابناء افريقيا ، وفيما يتعلق بالقرارات التى اتخذها دوليا و داخليا وفيما يتعلق بمسألة عويصة ، لها جذور عميقة مثل مسألة الرق . وحتى اذا لم تكن النتائج التى وصل اليها ايجابية الا انها كانت خطوات على طريق تغيير البنيان الاجتماعى فى هذا الكيان ، المصرى فى افريقيا .

وكانت المسألة تحتاج الى وقت ، وكان هناك عناصر ذات مصالح وعناصر تقليدية ، تقف فى وجه امكانية حدوث مثل هذا التطور وستكون مسألة الرق او الحرية بالنسبة لبعض اقاليم السودان من ضمن المسائل التى سوف يستغلها البعض ، من اجل تقويض الوجود المصرى هناك مع نشوب الثورة المهدية .

الفصل الثامن

الزراعة والغلات الزراعية (عصر اسماعيل)

١ - الزراعة :

كانت الزراعة في السودان تمارس بطريقة بدائية ، رغم ما أدخله محمد علي عليها من تحسينات ، سواء كان ذلك في مجال إرساله لعدد من مهرة الفلاحين المصريين الذين كانوا يقومون بالإشراف عليها بالإضافة الى قيامهم بتعليم أبناء السودان طرق الزراعة الحديثة ، أو كان ذلك في مجال إرساله لعدد من أسلحة المحارث التي كانت تستخدم في مصر وذلك لاستخدامها هناك .

فحينما كان الفلاح السوداني يفكر في زراعة أرضه ، كان يقوم بحرق الأشجار والحشائش الموجودة عليها ، لأن تركها يعوق نمو النباتات الزراعية ، ثم يقوم بعد ذلك بتنظيفها من مخلفات عملية الحرق (١) ثم يقوم أيضا بحفر الأرض الى تفر ، بواسطة السلوكه (٢) لكي يضع فيها البذور المراد زراعتها ، ثم يغطيها بالتراب ، ويتركها للطبيعة للتتولى أمرها (٣) .

Ramasy, M. and Jewitt, T.N. : agriculture forests and soils of the jur ironstone country of Bahr El-Ghazal province sudan. Ministry of agriculture Sudan government. Bul. N. 9. P. 13.

(٢) أنظر صفحة ٩٠ هامش ٩

(٣) تقرير أحمد ممتاز - عام ١٨٧١م - المحفظة ١١١ سواحل البحر

الأحمر .

وكان من الغلات الزراعية التي كانت تزرع في السودان الذرة ، والدخن ، والقمح ، واللوبياء ، والفاصوليا ، والسمسم ، والفول السوداني ، والحمص ، ولكن الذرة كانت من أهم هذه المحاصيل لأن السكان كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم (٤) . وإلى جانب المحاصيل السابقة ، زرع القصب في دنقلة (٥) وزرع القطن في أماكن متفرقة من السودان (٦) ولكنه لم يكن مشهورا ، كبقية الغلات الزراعية الأخرى .

ولم يكن للسكان السودانيون أي نشاط يذكر بشأن زراعة أشجار الفاكهة ، وربما كان يرجع ذلك إلى عدم معرفتهم لها ، ومن المرجح وجود هذه الأشجار في بعض الأماكن المتفرقة من السودان ، وهذا من غير المؤكد ، لأنها لو كانت موجودة لعلم بها السكان واستغلوا ثمارها كبقية المحاصيل الأخرى (٧) .

اعتمد السكان السودانيون في رى زراعتهم على مياه الأمطار سواء كانت الشتوية منها أو الصيفية (٨) ولكن على الرغم من توفر المياه والتربة الخصبة إلا أنهم كانوا لا يميلون إلى العمل الزراعي ، بل يميلون إلى الكسل والخمول وربما كان يرجع ذلك إلى سوء المناخ واعتمادهم على ما يحصلون عليه من الطبيعة .

The Ministry of agriculture Sudan Government: Annual report for the year 1st July 1952 to 30 June 1953. P. 6.

Ferguson, H.S. : Sugar Cane trails of the flood Plains of (٥) the Bahr El-Geble in the Anglo-Egyptian Sudan. P. 20.

Jewitt, T.N. : Seasonal variations in Cotton yields in the (٦) Sudan Gezira and soil fertility. Ministry of agriculture Sudan government memoirs of research division. P. 47.

Jackson, J.k. and Shawki, M.k. : Shifting cultivation in the (٧) Sudan M.A.S.G. N.2. P. 211.

John Smith : distribution of tree species in the Sudan in (٨) relation to rainfall and soil texture. P. 7.

ولكن لما تولى اسماعيل حكم مصر في عام ١٨٦٣م رغب في النهوض بالزراعة السودانية ، كى يحسن أحوال البلاد الاقتصادية ، وخاصة بعد انهيار الاقتصاد في بعض الأقاليم السودانية ، مثل بربر والخرطوم وسواكن وكسلا .

وكان من نتيجة تدهور هذه الحالة الاقتصادية أن طلب حكمدار السودان من الخديو اسماعيل أن يزوده بكمية من القمح ، كى يقوم بتوزيعها على سكان الأقاليم التى تعرض اقتصادها للانهيار (٩) . الذى أدى بالتالى الى أن عجز البعض منها مثل إقليم الناقة عن دفع مرتبات الجند والموظفين لمدة بضعة شهور ، مما اضطر مدير هذا الاقليم الى أن يطلب من الخديو أن يرسل له أربعة آلاف كيسه وذلك ليتمكن من صرف المرتبات الشهرية للعاملين في الاقليم (١٠) .

ونظرا لهذه الظروف ، فقد طلب اسماعيل من حكمدار السودان أن يهتم بشئون البلاد ، ويتضح ذلك من قوله:

« ومن جراء نقص المحصول الناشئ عن قلة نزول الامطار في تلك السنة الماضية ، فتعذر صرف مرتبات الجند ، بالتام وفي أوقاتها وكما لا يخفى عليكم أن جل غايتنا وآمالنا منحصرة في استكمال أسباب رخاء العيش والسعادة لجميع الأهالى الداخلين في حوزة الحكومة المصرية ، والسكان عموما ، خصوصا تمدين الأقاليم السودانية وتوسيع دائرة التجارة والزراعة فيها (١١) » .

ومن أجل العمل على حل هذه الأزمة قرر اسماعيل الاهتمام بالزراعة السودانية عامة والقطن بصفة خاصة ، وذلك ليتمكن السكان من تسديد ما عليهم

(٩) دفتر ٥٥٧ معية تركى وثيقة ٦٩ ص ٣٩ في ٧ رجب سنة ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨٦٥ م .

(١٠) دفتر ٥٣٩ — معية تركى ، وثيقة ١٦١ في ٢٨ محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨٦٥ م .

(١١) دفتر ٥٥٨ معية تركى ، وثيقة ١ ص ١٩ في ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨٦٥ م .

من ضرائب متأخرة للحكومة ، بالإضافة الى زيادة دخلهم ، حتى يعم الرخاء والرفاهية جميع البلدان .

٢ - الفلات الزراعية :

— القطن :

كانت زراعة القطن (١٢) منتشرة على نطاق ضيق في بعض الاقاليم السودانية ، وكان يقال ان شجرة القطن السوداني تعمر مدة طويلة من الزمن ، تصل الى ١٥ او ٢٠ سنة وكان هذا النوع من القطن يتحمل العطش ويقاوم البرد وهجمات الجراد ، ففي فصل الصيف تتساقط أوراقه وتنكمش لوزاته ، ولكن ما لبثت ان تعود الى الأنبات من جديد بمجرد أن ينقضي فصل الصيف (١٣) ويبدو ان السبب في تعمر أشجار القطن هذه المدة الطويلة من الزمن ، يرجع الى خصوبة التربة وملاءمة المناخ لمثل هذه الغلة ، وربما يرجع أيضا الى ان السكان كانوا لا يقومون فيما يبدو بازالة هذه الشجيرات ، بعد جنى المحصول وذلك لانهم لا يستقرون في منطقة بعينها ، بل كانوا ينتقلون من مكان لآخر .

(١٢) ذكر السير هارلد ميتشيل Sir Harld Micheal ان السودان كان الموطن الأصلي للقطن طويل النيلة ، والذي زرع في مصر فيما بعد . ويؤكد قوله المسيو جوميل Jumel الفرنسي الجنسية والذي أدخل الى مصر بذور القطن السوداني في الفترة ما بين ١٨٢٠ — ١٨٢٦م . فعندما زار جوميل السودان ورأى القطن مزروع في حديقة منزلى كل من مدير دتقلة وسنار ، أحضر معه الى مصر كمية من بذور هذا النوع من القطن وقد زرعت هذه البذور في مصر بعد ذلك على نطاق واسع ولكن على الرغم من وجود زراعة القطن في السودان ، الا ان السكان كانوا لا يستغلونها الاستغلال الجيد حتى أنهم كانوا يستوردون الأقمشة من شمال أفريقيا عن طريق وادى النيل ومن غرب أفريقيا ، وكانت دارفور مركزا هاما من مراكز تجارة الأقمشة في السودان ، انظر الكتاب التالى وهو عن الزراعة في السودان :

Numerous authors : agriculture in the Sudan, London, (١٣)
1948. P. 30.

وقبل أن يبدأ اسماعيل في زراعة القطن في السودان قرر أن يتخذ عدة خطوات ، كانت على جانب كبير من الأهمية ، وذلك من أجل النهوض بهذه الزراعة .

٣ - الخطوات التي اتخذها اسماعيل :

كان من أول هذه الخطوات التي اتخذها اسماعيل قيامه بعمل مسح شامل لجميع الأراضي السودانية وذلك ليتمكن من معرفة الأراضي التي تصلح للزراعة عامة والقطن خاصة ، وقد اتضح من هذا المسح أن مساحة الأرض التي تصلح للزراعة في مصوع تبلغ حوالى ٨٧٠٠ ميل^٢ ، أى ما يعادل ١٧٦٢ر٨١٠ فداناً ، وبلغت جملة الأراضي التي تصلح لزراعة القطن حوالى ١٢٧٤٩ر١ فداناً ، ولكن على الرغم من كل هذه المساحة الواسعة والصالحة للزراعة إلا أن السكان لم يزرعوا منها إلا أجزاء صغيرة جداً ، لا تكاد تذكر ، فكانوا يزرعونها بالذرة العويجة والدخن ، وكان انتاجها لا يكتفى حاجة السكان ، مما اضطرهم ذلك الى استيراد باقى احتياجاتهم من اقليم الناكه ، فلو اهتم هؤلاء السكان بزراعة أرضهم ، لتغيرت ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية ، وأصبحوا في وضع احسن حالا عما هم عليه الان (١٣) .

وقد جاء بالتقرير أيضاً أن مساحة أرض سواكن تبلغ حوالى ٢٢٠ر٠٠٠ ألف فدان ، كانت جميعها صالحة للزراعة وكان في الامكان زراعتها باستخدام مياه السيول ، التي توجد بكثرة في غربى سواكن ، زيادة على ذلك فانها تتميز بخصوبة التربة (١٤) وقد بلغت مساحة زولا حوالى ٢٠٠٠ ألف فدان ، كانت جميعها صالحة للزراعة وكان في الامكان زراعة هذه المساحة لو استغلت مياه أحد الأخوار القريب منها ، وبالفعل شرع محافظ مصوع في احضار أحد المهندسين الفرنسيين لتنفيذ هذا المشروع (١٥) وكان من الاقاليم التي تصلح

(١٣) ديوان عربى رقم ٣/٧٣ في ١٨ الحجة سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م

(١٤) تقرير عن الأراضي الصالحة للزراعة في السودان — محفظة ١٥٣ .

(١٥) دفتر ١٩٣٦ ، وثيقة ١٤٢ ص ٢١ في ٢٤ ربيع ثانى سنة ١٢٨٨هـ

الموافق ١٨٧١م .

أرضها للزراعة اقليم سنكات الذي تميز بخصوبة تربته فكان يمكن زراعته بالقطن الى جانب الذرة والدخن (١٦) ومن بعد هذه الاقاليم يأتي اقليم التاكة الذي تبلغ مساحته ٧ مليون فدان كان منها ٢ مليون فدان في خور الجاش (١٧)، وكان سكانها يعملون بالزراعة ، ولكن بطريقة بدائية مما جعل انتاجهم ضئيلا جدا ، وكان انتاج جهاتها الشمالية يصدر الى سواكن أو توكر ، بينما كان يصدر انتاجها من ناحية الجنوب الى قوز رجب ، ومنها كان يشحن الى المحروسة . ومن بعد التاكة تأتي منطقة القصارف ، التي تتميز بخصوبة التربة ، حيث تتشقق أرضها الى شقوق كثيرة أثناء موسم الجفاف ، فاذا ما حل موسم المطر وانسابت المياه في هذه الشقوق تشبعت الأرض بالماء وتوقف المسير فيها نهائيا لمدة شهر أو شهرين ويقول التقرير انه كان في امكان زراعة ٢٠٠ ألف فدان من أرض القصارف . ومن بعدها تأتي سنار التي بلغت مساحتها حوالي ٣٠٠.٠٠٠ ألف فدان وتتميز أرضها بالخصوبة وكانت تزرع بالسمنسم الذي يبيع الأردب منه في ذلك الوقت بريال ونصف الريال فقط ، ومن بعد سنار تأتي منطقة الخرطوم التي تميزت أرضها بسهولة المواصلات وبسهولة الري بمياه الأمطار ومياه النيل معا ، وكان في الامكان زراعة ٢٠٠.٠٠٠ ألف فدان بالقطن ، ومن بعدها تأتي منطقة فاشودة التي تنقسم أرضها بالخصوبة ، ولكن على الرغم من هذا فانها لم تستغل بعد ، كما لم يرد في التقرير ذكر لمساحتها . ربما لأنها كانت مستحذثة وهذا هو الأرجح . وأما عن كردفان التي تمتد اراضيها على طول النيل الأبيض حتى جبال تغلي فهي بهذا اكبر من مديرتي الخرطوم وسنار معا ، وتتميز أرضها من جهة الشمال بأنها رملية ، لذلك يقوم السكان بزراعتها تبغا ، أما الجهة الجنوبية منها ، فهي متسعة ويمكن أن يزرع السكان منها ١٠٠ ألف فدان من القطن ، كما يمكن تصدير انتاجها من القطن بسهولة وذلك بواسطة المراكب ، ومن بعدها تأتي

(١٦) دفتر ٣٩١٥ معية سنية ، وثيقة ٣ في جماد اول سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

(١٧) يبلغ عرض خور الجاش ما بين ١٠٠ أو ١٥٠ أو ٢٠٠ مترا ، ويبلغ عمقه متران ، وينبع هذا الخور من شمال الحبشة ، وتفيض مياهه ٣ شهور في السنة دون انقطاع .

بربر التي تتميز بخصوبة التربة فهي تضم آلاف الامدنة الصالحة للزراعة ،
والتي تروى بالامطار والسواقي من النيل وقد بلغ عدد السواقي بها حوالى
٣٠٠٠ ساقية وكان في الامكان زراعة ١٠٠ ألف فدان من أرضها قطناً ،
وبجوارها يوجد اقليم دنقلة الذي يضم مساحة من الأرض الخصبة التي تروى
بمياه النيل بواسطة السواقي ، وكان في الامكان زراعة ٦٠ ألف فدان من
أرضها بالقطن (١٨) وقد رسمت خريطة وضع عليها كافة الأراضي الصالحة
لزراعة القطن في السودان الشمالى (١٩) .

وكان من هذه الخطوات أيضا ان اسماعيل امر بأن يزرع القطن على
الطريقة الحديثة التي تتمثل في حرث الأرض بالمحاريث أولا ، ثم تترك ليتعرض
باطنها لحرارة الشمس ، لكى تموت الحشرات الضارة بجذور النبات ،
ثم بعد ذلك تخطط الأرض وتزرع البذور في نقر بين النقرة والأخرى خطوتين
واشترط الا يزيد عدد البذور في كل نقرة عن بذرتين فقط حتى اذا تلفت احدهما
تظل الثانية ، وفي حالة انبات البذرتين معا ، تقلع احدهما وتترك الأخرى
وكان الغرض من هذه العملية هو اتاحة الفرصة للشجيرة الباقية ان تتفرع
الى عدة غروع ، ولما في حالة عدم انبات البذور غفى هذه الحالة يعاد
زراعتها من جديد حتى لايترك مكانها بورا ، وبعد فترة من النمو يقوم الفلاحون
بتنقية الأرض من الحشائش التي تضر بالنباتات ويستثمرون في العناية
بالشجيرات حتى يكتمل نموها ويجنى المحصول ، وذلك باخراج القطن الشعر
من اللوزات كاملات النمو ، ويوضع في القفف مع مراعاة عدم خلطة بالاوراق
الجافة حتى يظل ابيض خاليا من الشوائب ، ثم يوضع في مكان نظيف ، بعيدا
عن المياه والقرضة الأرضية الى ان ينقل الى الشون المخصصة لذلك تمهيدا
لنقله الى مصر (٢٠) .

طلب اسماعيل من مدير كل مديرية ان يعد لكل قبيلة دفترا يوضح
فيه كمية القطن التي توردها هذه القبيلة واسم شيخها واسم الشخص الذي
ورد القطن واسم بدنته (قبيلته الصغيرة) وشيخها والكمية التي وردها

(١٨) محفظة ١٥٣ التقرير الخاص بزراعة القطن .

(١٩) انظر الخريطة رقم (٢) الموجودة خلف ص ١٦٣ .

(٢٠) دفتر ٣٩١١ وثيقة ١٥٢ شعبان سنة ١٢٨٧ الموافق ١٨٧١م .

توضيح بيانات الخريطة رقم (٢)
« وهى خريطة مبينا فيها محلات زراعة القطن بأعلا السودان
من ابتداء بربر — خرطة عمومية للسودان »

Official copy by Lient Ahmed Raif general staff. Jan. 11 de 1874.

H.G. Prout Maj. of Engineers
 Chief of 3d Section.
 Upper Sudan
 from notes by

Munzinger Bey
 Echelle 1 : 2.850.000
 Cotton supplying districts

Kordofan 1.7 he for him use
 Rashid and Gellabat.
 Kedarif should be grown only on.

account of famine can always produce any amount required naploughing deep black doil. The Hungary of Africa, Taka, Tokar, Barca, Anseba, Khartoom, Berber.

Grain : Dorah jowarie larg millet.

Dokhon small millet princepally in Kordofan.

— Sesame. Kedarif. Rashid are all cultivable lands generally it may be taken that with in the tropics all the plains and hills are fit for cultivation with the exception of bare volcanic ridges and peaks.

— Gum. I. Arabic or Heshab in kordofan little at Kedarif.

II. Suakin and Talk-trees Talk and sayat in Kedarif.

— Soda.

— Potash. General.

— Bark for Tanning general.

— Sugar on the hill. Taka, Tokar and inundated grounds.

— Ebony. Sennar, Fazoglei.

— Iron. Kordofan in granular form.

— Coal. On the way between Gellabat and Gondar in Aby. sinnia on the Gowango.

— Massawuh. exports 200,000 colf hides anually.

— Suakin-c = Circa 100,000-d = dito.

وتاريخ الورود ويوضح فيه أيضا القبائل التي اجتهد أبناءها في زراعة القطن حتى يمكن مكلفتهم ، ومعاقبة أبناء القبائل الذين تهلونوا في زراعته (٢١) ويبدو أن العقاب الذي كان يقصده اسماعيل بالنسبة للقبائل التي تقصر في زراعة القطن ، هو حرمانها من زراعة القطن بالإضافة الى شراء انتاجها من القطن بثمن بخس ثم حرمانها من خدمات الحكومة الخاصة بالنهوض بالزراعة .

ومن الاجراءات التي اتخذها اسماعيل أيضا توزيعه بذور تقاوى القطن على الفلاحين بالمجان ، وذلك بواقع كيلتين من البذرة لكل مزارع . مكان من المتبع أن يقوم مدير كل مديرية بتوزيع هذه البذور على المزارعين ، ففي عام ١٨٧١م وصل الى الخرطوم ٢٠٠ اردب من البذرة ، وتم توزيعها على جهات الخرطوم والبحر الأبيض وسنار وقد روعى ان ترسل هذه البذور قبل موسم انزراعة بوقت كاف (٢٢) كما أرسل في نفس الوقت كمية من البذور الى التاكة بلغت ٣٠٠٠ اردب (٢٣) ولكنها لم تف بالغرض المطلوب لان مساحة الأرض المراد زراعتها قطنا في اقليم التاكة بلغت حوالى ٣٦٠٠٠ فدان (٢٤) ولم يقتصر توزيع البذور على هذه الجهات ، بل شمل جميع جهات السودان وذلك من أجل النهوض بزراعة القطن في جميع انحاء البلاد .

ومن هذه الاجراءات أيضا أن اسماعيل خصص ساقية لكل ثلاثة أفدنة تزرع بالقطن بالإضافة الى ستة رؤوس من الماشية ، وستة رجال (٢٥) ولكن تلاحظ فيما بعد زيادة عدد الافدنة المخصصة لكل ساقية بمعدل خمسة

(٢١) دفتر صادر عموم سواحل البحر الأحمر رقم ٣٩٠٩ ص ١٠٢ وثيقة ٧٨ في ٢٠ جماد أول سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

(٢٢) دفتر ١٤ عابدين وارد تلفراف ، وثيقة ٤٩٣ في ١٤ رمضان سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م

(٢٣) محفظة ٤٨ معية تركى ، وثيقة ١٠٢ في ٢٧ صفر ١٢٨٨ 'الموافق' ١٨٧١م .

(٢٤) دفتر ١٩٤٢ أوامر عربى ، وثيقة ٢٢١ في ٥ صفر سنة ١٢٨٩هـ الموافق ١٨٧٢م .

(٢٥) دفتر ١٨٤٩ معية سنبة ، وثيقة ١٣ ص ٣٦ في ١٦ ربيع أول سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

«أفدنة» ، فأصبحت جملة الأفدنة المقررة لكل ساقية ٨ أفدنة ، بدلا من ثلاثة أفدنة (٢٦) ، يبدو أن السبب في زيادة عدد الأفدنة بالنسبة لكل ساقية، يرجع الى زيادة الأرض الصالحة لزراعة القطن ، أو الى قلة عدد السواقي ، ولكن من المرجح أن يكون السبب هو زيادة المساحة المراد زراعتها بالقطن . وكان من هذه الخطوات قيام اسماعيل بحفر بمض الترع ، وإنشاء بعض الخزانات ، الخاصة بخزن المياه حتى يمكن استغلالها في ري الأراضي المزروعة بالقطن وكان من هذه الترع التربة التي حفرت في بربر لتوصيل مياه النيل الى الأراضي الزراعية (٢٧) . بالإضافة الى استخدام الماكينات في رفع المياه من النيل الى هذه الأراضي (٢٨) .

وكان من الخزانات التي أمر اسماعيل بإنشائها خزان سواكن الذي أنشئ بفرض حجز مياه الأمطار لكي يستخدمها السكان في ري الأرض المزروعة بالقطن ، بالإضافة الى ذلك فإن هذا الخزان سوف يزود الأهالي وجنود الجهادية الموجودين بسواكن بما يلزمهم من المياه العذبة ، فكان من المعتاد أن يرحل السكان في فصل الصيف الى سنكات لكي يحصلوا على ما يلزمهم من المياه العذبة ، وكان ذلك يضر بهم ، لأنهم كانوا يتوقفون تماما عن ممارسة تجارتهم في هذه الفترة من السنة ولكن بعد أن تم بناء هذا الخزان ، عادت لهم الحياة الطبيعية ، وقد وفر هذا الخزان ، الذي أنشئ على خور التمانيب الذي يبعد عن سواكن بحوالي أربع ساعات من المسير حوالي ٢٥٠ ألف متر مكعب من المياه (٢٩) . وقد استخدمت إحدى الماكينات في ضخ المياه من هذا الخزان الى المزارع (٣٠) .

(٢٦) دفتر ١٨٦٤ معية عربى ، وثيقة ٢٧ في ١٧ شوال سنة ١٢٨٩هـ الموافق ١٨٧٢م .

(٢٧) دفتر ١٨٣٩ أوامر كريمة عربى وثيقة ٨ ص ٥٤ في غرة محرم سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

Dr. Mohamed Sabry : Le Soudan Egyptien 1821-1898. (٢٨) P. 11.

(٢٩) محفظة ١٩ بحر برا - وثيقة ٢٢١ في ٩ شعبان سنة ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م .

(٣٠) دفتر ٢٣ عابدين ، وارد تلفراف ، وثيقة ٩ في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

ومن الاجراءات التى اتخذها اسماعيل انشاؤه لعدد من المحالج الخاصة بطح القطن ، فكان قد ارسل عددا من البنائين المصريين لكى يقوموا ببناء اماكن لهذه المحالج ، وكان العامل منهم يتقاضى اجرا يوميا قدره ٢٢ قرشا (٣١) فكان اسماعيل قد انشا وابور للحلج فى كل من دنقلة وبربر (٣٢) والتاكة وسواكن وعين لكل محلج من هذه المحالج اسطى من ابناء العرب ، وذلك لتسهيل هذا الوابور ، فى مقابل حصوله على مرتب شهري قدره ٥٠٠ قرشا (٣٣) .

ومن هذه الاجراءات ايضا ، أن خصص اسماعيل عددا من الجنود للعمل فى الزراعة بوجه عام ، وزراعة القطن بوجه خاص . وكان ذلك بناء على رغبتهم الخاصة وقد عمل هؤلاء الجنود فى اقليم توكر الذى يتميز بخصوصية التربة ووفرة المياه ويمكن تعليل عمل المساکر بالزراعة الى انهم ، اصبحوا غير قادرين على ممارسة العمل العسكرية ، وربما يرجع ذلك الى عدم احتياج الحكمدارية الى خدماتهم العسكرية ، وخاصة بعد أن انتهت الحروب الحبشية المصرية وكان هؤلاء الجنود قد طلبوا من حكمدار السودان أن يوافق لهم على ارسال عائلاتهم الى اماكن تواجدهم ، على شرط أن يتحملوا مصاريف نقلهم ، كما اشترط الخديو اسماعيل أيضا الا تجبر هذه العائلات على الرحيل الى السودان ، بل يكون ذلك بمحض ارادتهم واختيارهم (٣٤) .

من المرجح أن عائلات هؤلاء الجنود لم تستقر فى السودان طويلا ، وذلك بسبب قيام الثورة المهدية ، كما لم يعرف على وجه التحديد متى عادت هذه العائلات الى مصر ، فمن المرجح أيضا أن تكون هذه العائلات قد عادت الى مصر ، نظرا لقرار اخلاء السودان الذى صدر بعد قيام الثورة المهدية .

(٣١) دفتر ٣٩١٥ وثيقة ٢٤ بدون تاريخ .

(٣٢) دفتر ١٨٥٢ معية عربى وثيقة ٤٤ ص ٧٥ فى ٥ الحجة ١٢٨٨ هـ الموافق ١٨٧١ م .

(٣٣) دفتر ٢٣ عابدين وثيقة ٩ فى ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

(٣٤) دفتر ٢١ معية عربى ، وثيقة ١١ فى ٦ شوال سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٧٧ م .

وكان اسماعيل قد زود هؤلاء الجنود الذين رغبوا في العمل الزراعى ،
بكل ما يلزمهم من بذور وماشية ، واشترط عليهم أن يقوموا بتسديد قيمة
اثمنها من حصيد انتاجهم الزراعى (٣٥) .

وكان من الاجراءات التى اتخذها اسماعيل ، قراره بانشاء ترسانة
بحرية ببلدة قوز رجب ، وذلك لصناعة المراكب اللازمة لنقل القطن من
السودان الى مصر (٣٦) ويمكن تحليل اختيار قوز رجب كمكان للترسانة الى
سببين اولهما وفرة الأخشاب الموجودة فيها والتى يمكن الحصول عليها
بسهولة ، وثانيهما أن بلدة قوز رجب تربية من النيل النوبى الذى يمثل الشريان
الرئيسى لمواصلات السودان النهرية مع مصر .

وكان من نتيجة هذه الاجراءات التى اتخذها اسماعيل ان ازدهرت
زراعة القطن فى السودان بالاضافة الى ارتفاع سعره ، فقد تراوح سعر
القنطار منه فيما بين ٤٠ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٧٠ ، قرشا للقنطار ، الذى
يزن ١٠٠ رطل ، ومع ذلك تظلم الاهالى من انخفاض سعره (٣٧) مما اضطر
الخدوي أن يأمر برفع سعر القنطار بنحو عشرة قروش ، كى يرغب المزارعين
فى الاستمرار فى زراعته ، بالاضافة الى زيادة محصولهم (٣٨) وبالفعل زاد
الانتاج وخاصة فى المديرية الجنوبية مثل النيل الابيض وفاشودة ولكن فى
نفس الوقت انخفض سعر القنطار الى ٤٥ قرشا (٣٩) ويمكن ارجاع انخفاض
سعر القطن الى رداءة النوع المعروض للبيع وربما كان يرجع السبب فى
انخفاض السعر الى زيادة الانتاج لانه فيما بعد ارتفع سعر القنطار الى ٧٥

-
- (٣٥) دفتر ١٩٣٩ وثيقة ٥ فى ٥ محرم ١٢٨٩ هـ الموافق ١٨٧٢ م .
(٣٦) دفتر ٣٩١١ وثيقة ١٢ فى ١٥ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ الموافق ١٨٧١ م .
(٣٧) دفتر ١٨٦٠ معية عربى ، وثيقة ٥٢ فى ١٣ محرم سنة ١٢٩٠ هـ
الموافق ١٨٧٣ م .
(٣٨) دفتر ١٨٧٥ معية عربى ، وثيقة ١ ص ٤٨ فى ٥ القعدة سنة ١٢٩٠ هـ
الموافق ١٨٧٣ م .
(٣٩) دفتر ١٨٦٤ معية عربى ، وثيقة ٥٣ ص ١١٠ فى ١ جماد أول سنة
١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

قرشاً وكانت تكاليف القنطار بعد حمله ونقله الى مصر تبلغ حوالى ١٩٨.
قرشاً (٤٠). .

ومن الواضح أن السودانيين استفادوا من زراعة القطن في عدة نواح ،
منها أنهم زرعوا مساحات شاسعة من ارضهم التى كانت غير مستغلة في الماضى
والتي ظلت بوراً ، ومنها أيضاً أن بلادهم أصبحت تعج بالعمران وذلك بإنشاء
المحالج والشون والترسانات في أماكن عديدة من السودان ، زيادة على ذلك
فإن هذه الزراعة أدت الى زيادة دخل السكان ، فتمكنوا من تسديد ما عليهم
من ديون متأخرة ، كما أدت الى إنشاء كثير من القرى في أماكن زراعة القطن ،
مثل اقليم توكر الذى استوطنه المصريون .

لم تقتصر درجة الاستفادة من زراعة القطن في السودان على —
السودانيين وحدهم فحسب ، بل أيضاً شاركهم المصريون هذه الاستفادة ،
فكان القطن السودانى يصدر الى مصر وهناك يأخذ منه ما يكتفى حاجة البلاد
وما يتبقى يصدر للخارج .

الى جانب اهتمام اسماعيل بزراعة القطن في السودان ، اهتم أيضاً
بزراعة بعض الفلات الزراعية الأخرى ، كالقصب والذرة والبن والدخان
وأشجار الفاكهة والخضر وكان القصب من الفلات الهامة ، التى اهتم اسماعيل
بزراعتها في السودان ، وذلك لتزويد السكان بما يلزمهم من السكر والعسل
وكان قد قرر أن يزرع منه حوالى ١٠٠ مائة فدان كتجربة أولى ، وفي نفس
الوقت طلب من الحكماز أن يرسل عدداً من أبناء السودان الى مصر
للتدريب على مهنة صناعة السكر في قرشوط ، ثم يعودون بعد ذلك الى
السودان لممارسة هذه الصناعة في بلادهم (٤١) . ولكنى مع ذلك لم أعتز على
اية وثائق توضح لى مدى نجاح هذه الصناعة في السودان ، وعلى اية حال
فإنه رغم عدم نجاح هذه الصناعة فإنها زودت على الأقل السودانيين بالفكرة
الخاصة بصناعة السكر .

(٤٠) دفتر: ٣١٠٠ عايدين ، وأردت طغرافة — وثيقة ٣٠٢ في ٢ جماد اول
سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .
(٤١) دفتر ١٨٥٩ معية عربى ، وثيقة ٩ غزة شوال ١٢٨٨ الموافق
١٨٧١م .

ومن بعد القصب اهتم اسماعيل بالذرة والدخن ، ففى عام ١٨٧٢ ، طلب الخديو من مأمور سنكات أن يعمل على زيادة المساحة المزروعة ذرة ودخنا، ولكن مأمور سنكات أفاد بأن السكان ليس لديهم الخبرة الكافية بزراعة هذين الصنفين مما اضطر الخديو أن يرسل خبيرين من مصر هما الشيخ محمد على والشيخ محمد الجعلى وذلك للمرور على تلك الجهة ، وغيرها من الجهات السودانية الأخرى لتفهم السكان طريقة زراعة الفلات التى لم يعرفوا زراعتها من قبل ، بالاضافة الى فحص نوعية التربة ، فالأرض التى تصلح تربتها لزراعة الذرة تزرع ذرة، والأرض التى تصلح تربتها لزراعة القطن تزرع قطناً (٤٢) . لم يكتف اسماعيل بهذا الجهد بل أمر بتزويد المواطنين السودانيين بالتقاوى اللازمة من بذور الذرة والدخن ، وقد وزعت هذه البذور على اقليم اركويت والتاكة (٤٣) وهرر وكردفان وغيرها من البلاد السودانية الأخرى (٤٤) وبلغ الاهتمام بزراعة الذرة أن غردون باشا طلب من اسماعيل أن يسمح له بعدم مهاجمة المتمردين ، اثناء موسم الخريف ، الذى تزرع فيه الذرة ، حتى لايتوقف السكان عن زراعتها ولكن بعد الانتهاء من عمليات الزراعة ، يمكن لغردون أن يطارد المتمردين ويقتضى عليهم (٤٥) والى جانب الذرة زرع القمح والشعير والبرسيم (٤٦) .

ومن الفلات الزراعية الأخرى التى اهتم اسماعيل بها ، البن الذى كان يزرع فى هرر والذى كانت زراعته تحتاج الى عناية خاصة ، فكانت طريقة

(٤٢) دفتر ٣٩١٥ معية عربى وثيقة ٢ فى ٢٩ محرم سنة ١٢٨٩ الموافق

١٨٧٢م .

(٤٣) محفظة ١٩ بحريرا ، وثيقة ١٢٢ فى ١٠ شعبان ١٢٨٦ الموافق

١٨٦٩م .

(٤٤) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٤ معية عربى ، وثيقة ١٢ صفحة

١٧ فى ١٧ الحجة سنة ١٢٨٦ الموافق ١٨٦٩م .

(٤٥) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٤٦ عابدين ، وثيقة ٢٦٠ ص ٦٧

فى ٢٥ ربيع ثانى سنة ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م .

(٤٦) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٢ عابدين — وثيقة ٢١٤ ص ٤٥

فى ٢ ربيع اول سنة ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م .

زراعته تتلخص في حفر الأرض الى حفر صغيرة توضع في كل منها بذرتان من بذوره ثم تغطى بالتراب ، ومن فوق التراب تغطى الحفر بالقش ، وتترك لمدة ٤٠ يوما ، وبعد أن يظهر النبات على سطح الأرض ، يقوم المزارعون بعمل تعريشه من الأخشاب والقش ، وبعد ذلك يترك لمدة اثني عشر شهرا ، مع المداومة على ريه بالماء كل سبعة أيام ، وبعد هذه المدة تنقل الشجيرات الى مكان جديد ، وكان من المتبع أن يوضع في كل حفرة شجرتين ، حتى اذا ماتت احدهما ظلت الأخرى وكان السكان يداومون على ريه بمعدل مرة كل اسبوع وذلك لمدة ٨ شهور ، بعدها يروى مرة أو مرتين في السنة ، وبعد سنة من الزراعة ، تظهر ثماره ، فيقوم السكان بحنيها ، قبل أن يتم نضجها حتى لا تضعف أشجارها ، ويستمررون في مواصلة هذه العملية لمدة خمس سنوات ، بعدها تصبح ثماره جيدة ، هذا مع المداومة على ريه مرة أو مرتين أو ثلاثة مرات في السنة وكانت شجرة البن تثمر مرتين في السنة وتعطى في الجنية الواحدة حوالي سبعة أرطال و ٢٢٤ درهما هرريا (٤٧) .

لم يقتصر نشاط اسماعيل على الفلات الزراعية فحسب بل تطرق اهتمامه الى زراعة اشجار الفاكهة ، ففي عام ١٨٦٦م طلب اسماعيل من محافظ مصوع أن يهتم بزراعة اشجار الفاكهة وخاصة من الأنواع الغير متوفرة في محافظته (٤٨) ، وذلك لتزويد البلاد بما تحتاجه من الفاكهة وعلى هذا الأساس بدأ المحافظ في تنفيذ ما أوكل اليه وقد طلب من مصر أن تزوده بماكينه مياه لاستخدامها في ري حديقة الفاكهة التي زرعت في جهة أم كلوا ، التي تبعد عن مصوع ٣ ميل فقط (٤٩) بعد ذلك زرعت اشجار الليمون والبرتقال في سواكن ولكن لم تنجح زراعتها ، وذلك لشدة الحرارة ، فأمر اسماعيل

(٤٧) جريدة أركان حرب الجيش المصري — العدد ٥ الجزء ٥ — المجلد ٦

— في عام ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م — صص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ .

(٤٨) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٥٨ وثيقة ٣ ص ٣ في ٢٣ شوال

سنة ١٢٨٣ الموافق ١٨٦٤م .

(٤٩) دفتر ١٨٤٧ معية عربى — وثيقة ٦ ص ٤٠ في ١٢ صفر سنة ١٢٨٨

الموافق ١٨٧١م .

ينقلها الى اركويت حيث زرعت هناك وذلك للملاحة مناخها عن سواكن (٥٠) .
وقد امتدت زراعتها الى بربرة بواسطة جنود الجهادية كما امتدت الى
فاشودة (٥١) وزرعت أيضا اشجار الليمون والبرتقال والتين في كل من
دنقلة وبربر وكان الخديو اسماعيل قد طلب من حكمدار السودان أن يعنى
اشجار الفاكهة من الضرائب (٥٢) حتى يتشجع الناس على الاكثار من زراعتها
وفي هذا الصدد يخاطب اسماعيل حكمدار السودان بقوله :

« وانى بموجب امرى هذا اطلب منك عدم فرض أموال أميرية على
الأراضى المنزرعة بها اشجار ، ولا على الأشجار المنفردة أو التى ستفقس
من الان فصاعدا مثل اشجار الليمون والبرتقال والتين واشجار الفاكهة في
السودان » (٥٣) .

ولكى يشجع اسماعيل السكان على ممارسة الزراعة عامة واشجار
الفاكهة خاصة أمر بتخفيض الضرائب على الأطيان الزراعية ، وذلك بقوله :

« انه من الاقتضى اعتبار مالية الفدان عشرين قرشا فقط ، تطبيقا
لامر المرحوم محمد سعيد باشا ، وصرف النظر عن الزيادات التى تلت بعدها
بأذونات الحكمدارية ، حتى نحصل بذلك على زيادة الرغبة والاقدام من
الاهالى على زراعة مايروى من تلك الأطيان ، وانتفاعهم بمحصولاتها ،
وانما مع هذا يلزم زيادة الاعتناء والالتفات منكم ومن الحكام الذين تحت
ادارتكم للتحرى السنوى عن الأطيان التى يصير ريبها من هذه الأنواع وحث

(٥٠) محافظابحاث السودان — دفتر ٣٩١١ وثيقة ١٧٠ في ٨ شعبان —
سنة ١٢٨٧هـ الموافق ١٨٧١م .

(٥١) محافظابحاث السودان — دفتر ٥ معية سنوية ، وثيقة ٤ في غرة
رمضان ١٢٩١ الموافق ١٨٧٤م .

(٥٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان ، المصدر السابق
ص ٣٥٨ .

(٥٣) نفس المصدر : ص ٣٥٨ .

الأهالى على زراعتها أولا بأول وعدم ترك شيء باير منها بدون زراعة ، مع حصر مقاديرها ، وربط ماليتها سنويا بحسبما يتحقق من ربحها ، وزراعتها ، فأصدرنا أمرا هذا لكم للمعلومية وأجرى العمل على مقتضاه « (٥٤) » .

واضح من هذا الخطاب مدى اهتمام اسماعيل باشا بالزراعة كوسيلة فعالة من وسائل التنمية الاقتصادية .

وأما عن الخضر فقد زرعت في بربرة وغيرها من البلاد السودانية الأخرى ، فقد قام الجنود المصريون بزراعة مساحة كبيرة بالخضر أمام معسكرهم في بربرة وقد بلغ طولها حوالى ١٥٠٠ مترا (٥٥) وكان من بين أنواع الخضروات التى تمت زراعتها هناك البامية والرجلة والفجل ومن الفاكهة الشمام (٥٦) .

ومن الملاحظ أن الخضر لم تحظ باهتمام اسماعيل مثلما حظيت به بقية الفلات الأخرى ويمكن تعليل ذلك بأن زراعة الخضر نمت على نطاق ضيق . والسبب فى ذلك يرجع الى أن زراعتها كانت قاصرة على تزويد الجند بما يحتاجون اليه من خضر دون غيرهم بالإضافة الى ما كان يرد من مصر من أصناف الخضر الغير متوفرة فى البلدان الأفريقية . ويبدو أيضا أن السكان فى السودان خاصة وأفريقيا عامة ، كانوا لا يهتمون بزراعة الخضر ، وربما يرجع السبب فى ذلك الى جهلهم بزراعتها .

٤ - نظام ملكية الأراضي فى السودان :

كانت الأراضي فى السودان ، تملك للأشخاص بعدة طرق منها طريقة وضع اليد ، التى كانت تتم عندما يقوم الملك باعطاء أية جزيرة تظهر فى النيل

(٥٤) محمد فؤاد شكرى : نفس المصدر ص ٣٧٢ .

(٥٥) دفتر ٣٧١٥ معية عربى ، وثيقة ٥٦ ص ٩٦ ، ٩٧ فى ١٤ القعدة سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٥٦) دفتر ٣٧١٦ ، وثيقة ٤٩ فى ١٧ ربيع ثانى سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٧٧م .

لأى شخص يختاره من بين رعاياه ، سواء كان من رجال العلم أو من غيرهم .
وكان المالك لهذه الجزيرة أو الأرض يحصل من الملك على عقد مختوم بختامة ،
يحول له ملكيتها ، وكان من المتبع كذلك أن تنتقل ملكيتها من وريث لآخر
طبقا لما جاء بهذا العقد .

وكان منها الرغبة في استصلاح الأراضي البور ، وذلك بغرض زراعتها
والانتفاع بها ، وكان من المتبع بالنسبة لامتلاك هذا النوع من الأراضي ، أن
يقوم الراغب في اصلاحها ، بتقديم طلب الى السلطة ، يحصل بمقتضاه على
ملكية هذه الأراضي ، وذلك بوضع اليد ، ويصبح المستصلح منذ هذه اللحظة
صاحب الحق في بيعها أو توريثها أو تأجيرها بموجب عقد يحرره بمعرفة أحد
الفقهاء الموجودين بجهته .

ومنها كذلك طريقة الإيجار التي كانت تحدث عندما يكون المالك ليس له
مقدرة على زراعة أرضه بسبب اتساعها ففي هذه الحالة كان عليه أن يقوم
بتأجيرها لمن يرغب في زراعتها ، بحيث يحصل صاحب الأرض على الثلث
ويحصل المستأجر على الثلثين ، وفي بعض الأحيان كانت الزراعة في هذا النوع
من الأراضي تتم بالمرابعة ، بمعنى أن يحصل صاحب الأرض على الربع
ويحصل المستأجر على ثلاثة الأرباع الباقية . ومنها طريقة التوريث التي
كانت تحدث عندما يموت أى مالك لأى مساحة من الأرض ، ففي حالة عدم
وجود وريث له ، كان على أحد الأهالي أن يقوم بوضع يده على هذه الأرض ،
ثم يقوم بعد ذلك بزراعتها ، وتقع الضريبة المقررة عليها للميرى ، وعندما
يهمل هذا المالك الجديد في زراعتها ففي هذه الحالة تقوم الحكمدارية بأخذها
منه واعطائها لغيره من المزارعين ليقوم بزراعتها .

وكانت الحكمدارية تقوم بفرض ضرائب على هذه الاطيان ، ولكن لقلّة
انتاجها ، عجز أصحابها عن تسديد قيمة الضرائب المقررة عليها ، فاضطروهم
ذلك بالتالى الى تركها والهروب الى أماكن بعيدة كى يمارسون الزراعة
في أراض غير معروفة المساحة ، حتى لا يدفعوا عنها الضرائب ، ولكن لما
علم بذلك حكمدار السودان ، [موسى باشا] اضطر الى أن يبطل هذه

الضريبة المقررة على الأراضى ، وفرض غيرها على الأشخاص أنفسهم ؛ ومن هذا التاريخ صار المزارعون ، يزرعون المساحات التى يرغبون فى زراعتها (٥٧) ، هذا باختصار عن الزراعة والفلات الزراعية ، ومدى معرفة ماقامت به مصر من اجراءات فى سبيل النهوض بهما .

(٥٧) دفتر ٢٨٣ وثيقة ٣ ص ١٣٦ فى ٩ ربيع ثانى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق

١٨٧٣ م .

الفصل التاسع

السكك الحديدية والمواصلات في السودان

استمرت قوافل التجارة السودانية القادمة الى مصر ، تستخدم الطرق البرية والمائية ، بعد الفتح المصرى للسودان ، وحتى عصر اسماعيل ، والدليل على ذلك ما جاء بهذه الاحصائية ، التى توضح لنا القيمة النقدية لهذه التجارة ، فى الفترة ما بين ١٨٧٣ ، ١٨٧٤م التى كانت تقدر بنحو ١٦٠٠٠٠٠٠ جنيه و ٣٧ بارة وكان هذا المبلغ عبارة عن قيمة اثمان لبعض السلع التجارية المثلة فى ريش وبيض النعام ، والصفى والعاج والتمر حنا ، والسنامكى والشمع والجلود والكراييج والبن والفلفل الأحمر والفرو ، وقرون الخريت والأعشاب الطبية .

ولكن على الرغم من تعدد أصناف هذه السلع الا أنها كانت لا تنفى — باحتياجات السودان النقدية ، والدليل على ذلك ، ما جاء فى ميزانية عام ١٨٧٨ التى كانت على النحو التالى : —

- ٥٧٩٠٠٠ ألف من الجنيهات المصرية قيمة الدخل العام للسودان .
- ٦٥١٠٠٠ ألف من الجنيهات المصرية قيمة الاتفاق السنوى .
- ٣٢٧٠٠٠ ألف من الجنيهات المصرية قيمة الدين .
- ٧٢٠٠٠ ألف من الجنيهات المصرية قيمة العجز فى الميزانية السودانية (١).

يفهم من هذه الميزانية أن انتاج السودان ، كان لا يفى باحتياجاته ، وذلك اما لعدم استقلال موارده الاقتصادية ، استقلالاً صحيحاً ، وهذا

Report on the Egyptian Province of the Sudan op. cit. (١).
P. 150.

من المرجح ، وأما لقلّة هذه الموارد ، وهذا من غير المؤكد لأنه من المعروف لدينا أن السودان كان ولا يزال غنيا بموارده الاقتصادية ويبدو أن اسماعيل قد أدرك هذه الحقيقة ، عندما بدأ في مد سكة حديد السودان ، وذلك لاستغلال موارده الاقتصادية بطريقة أفضل بحيث تعود على الشعبين الشقيقين بالنفع والرخاء ، بالإضافة الى استخدامه لهذه السكة الحديدية ، في ربط البلدين ببعضهما لتسهيل حركة الاتصال بينهما .

١ - أهمية مد السكك الحديدية الى السودان :

ترجع أهمية انشاء السكك الحديدية السودانية ، الى نقل المواد الاقتصادية من أفريقيا عامة والسودان خاصة الى مصر ومنها الى دول العالم الخارجى . وقد تمثلت هذه الموارد في العاج وريش النعام ، والصمغ والجلود والعطارة ، وقد قدرت قيمة الصادرات السودانية في السنة بنحو ١٠٠.٠٠٠ تونولاته ، وبلغت قيمة التونولاته الواحدة ٥٠ ريالاً ، هذا بخلاف بعض الغلات الأخرى ، والتي لم يتم تصديرها كالقطن والقمح والبلح والفاكهة ، ومن الواضح أن السبب في عدم تصدير هذه الغلات الى الخارج ، يرجع الى عدم ملائمة وسائل النقل المستخدمة في ذلك الوقت ، فلو توفرت وسائل النقل السريعة والكبيرة الحجم ، كالسكك الحديدية مثلاً ، لأمكن تصدير كميات ضخمة من هذه الغلات بحيث تبلغ في جملتها حوالى ١٥٠.٠٠٠ ألف تونولاته في السنة ، بدلاً من تصدير ١٠.٠٠٠ عشرة آلاف تونولاته ، وتقدر قيمة نقل هذه الكمية بنحو ٣٠٠.٠٠٠ ألف من الجنيهات المصرية ، أى بواقع ٢ جنيه للتونولاته الواحدة ، ولو خصم من أجر النقل ٤٠٪ أى ما يعادل ١٢٠.٠٠٠ ألف من الجنيهات المصرية كمصاريف للنقل ، لتبقى ١٨٠.٠٠٠ ألف جنيه مصرى هي عبارة عن صافي الربح (٢) ، وكان يقابل هذه الصادرات التجارية ، واردات تجارية أخرى تمثلت في الاتمشة بكافة أنواعها ، والمشروبات الروحية التي كانت تستورد من أوروبا والهند ومن بعض بلدان العالم الأخرى ، وقد قدرت جملة هذه الواردات بنحو ٤٠٠٠ تونولاته ، وبلغت جملة مصاريف نقلها

(٢) محافظ مجلس الوزراء (سودان) محفوظة رقم ١٥ وثيقة بدون تاريخ

١٥٠٠٠٠ (٣) . فانشاء السكك الحديدية السودانية سوف يساهم بقسط كبير في نقل هذه الواردات ، مما يسهل بالتالى حركة الصادر والوارد .

ومن فوائد السكك الحديدية ايضا انها ستكمل الاتصال مع مصر وملحقاتها ومع نصف الكرة الجنوبي ، والهند وبلاد الشرق والسواحل الغربية للبحر الاحمر والمحيط الهندي ، اى انها ستؤدى الى اختصار الطريق الى بلاد الهند والصين واليابان واستراليا ، كما انها ستجعل مدينة الاسكندرية على اتصال مباشر بالبحر الاحمر دون انقطاع ، مما يؤدى بالتالى الى زيادة عدد السياح الذين يرغبون في زيارة هذه البلاد زيادة على هذا كله فانها ستساعد على انتشار الأمن في ربوع البلاد السودانية ، وذلك بعاملين اولهما ، زيادة العمران الذى سيوجد ببناء المدن الحديثة والمحطات التى تنشأ على طول الخطوط الحديدية ، وثانيهما السرعة في نقل الجنود للقضاء على اى تمرد او عصيان هناك وفوق كل هذا ، فانها ستعمل على ربط شمال السودان بجنوبه، ويؤدى ذلك بالتالى الى المساعدة في انتقال السكان الجنوبيين الى الشمال والعكس ، كما يؤدى ايضا الى تنشيط حركة التجارة بين الاقليمين والاقاليم الأخرى (٤) .

٢ - تطور انشاء السكك الحديدية السودانية :

ترجع فكرة انشاء السكك الحديدية السودانية الى عصر محمد على ، وعلى وجه التحديد الى عام ١٨٢٧م . ففى هذا العام ، فكر محمد على في استخدام السكك الحديدية في نقل المعادن الخام ، التى يتم الحصول عليها من اقليم كردفان ، وبعض المناطق الاخرى الى اماكن تجمعها التى ستنشأ بجوار انيل الأبيض ، ومن اماكن التجمع هذه ، ينقل الحديد الخام بواسطة وسائل النقل المستخدمة من قبل الى مصر ، ولكى يقوم محمد على بتنفيذ هذا المشروع طلب من مستشاره أدلف لينان Adolphe Linant

(٣) نفس المحفظة .

(٤) تقرير فولر : المصدر السابق .

أن يقوم بعمل الدراسات اللازمة لهذا المشروع ، وذلك لمعرفة مدى صلاحيته من عدمه . وبعد أن أجريت هذه الدراسة تقرر على ضوءها إمكانية إنشاء ثلاث خطوط حديدية ، يربط أحدها بين وادى النيل والبحر الأبيض ، ويربط الثانى بين سواكن على البحر الأحمر وبربر على النيل النوبى ، ويربط الثالث بين سواكن أيضا وبين شندى على النيل ، ولكن على الرغم من إجراء هذه الدراسة إلا أن هذه الخطوط لم تخرج إلى حيز التنفيذ في عصر محمد على (هـ) .

ولما تولى محمد سعيد باشا حكم مصر ، فكر أيضا في مد سكة حديد إلى السودان ، فأوفد المهندس منجل بك Mongel Bey إلى هناك لدراسة الوسائل الفعالة التى يمكن بها التغلب على عقبات الملاحة في النيل النوبى ، وحل مشكلة النقل في السودان بواسطة السكة الحديد وذلك لزيادة الروابط بين البلدين (مصر والسودان) (٦) .

وبعد دراسته لهذا المشروع تقرر عدم إمكانية تنفيذه وذلك لضخامة تكاليفه (٧) وفي نفس الوقت كان أنتونى روليه Antony Brun Rollet يدعو إلى تنشيط حركة التجارة السودانية ، وذلك باستخدام السكك الحديدية ، ويدلل على ذلك بقوله :

« إن المسافة بين البلدين طويلة ولا يمكن قطعها بسهولة فكان المسافرون يقطعون المسافة بين أسوان وسنار في ستة أشهر بينما لو استخدموا السكة الحديد لأمكن قطعها بسهولة ، وفي وقت قصير جدا ، لا يتجاوز الساعات . وأن إنشاءها سوف يعود بالخير والنفع على شعوب المنطقة » . ولكن على الرغم من هذه الدعوة إلا أن محمد سعيد باشا لم يهتم بها ، واستمر الوضع على ما هو عليه إلى أن جاء الخديو اسماعيل ، الذى باشر بإنشاء

Hill. R. ; Sudan Transport : op. cit. pp. 6,8. (٥)

(٦) د. صلاح الدين الشامى : المواصلات والتطور الاقتصادى في

السودان ص ٩ .

Report on the Egyptian provinces. op. cit. P. 11. (٧)

قومبانية (٨) ، كانت مهمتها مد السكك الحديد الى السودان ، وذلك لتحسين نقل الصادرات السودانية الى مصر ومنها الى دول العالم الخارجى (٩) .

فبمجرد ان انتهى الخديو اسماعيل من انشاء هذه القومبانية التى — ستتولى مد السكة الحديد السودانية ، طلب من السلطان العثمانى أن — يتنازل له عن مينائى سواكن ومصوع ، كى يربط مدن وموانى البحر الاحمر بmeden وسط السودان ، ولكن بمجرد ان علم والى جده بمطلب الخديو ، كتب الى السلطان العثمانى يخبره بعدم الموافقة على مطلب الخديو ، حتى لاتتعرض خزانة الدولة العثمانية الى نقص فى مواردها المالية بسبب هذا

(٨) بدأت هذه القومبانية فى ممارسة نشاطها برأس مال قدره ٥٠٠.٠٠٠.٢٥ جنيه مصرى ، فكانت قد حصلت على ثلثى هذا المبلغ من البيوت المالية الموجودة بالاسكندرية ، وأوربا ، وحصلت على الباقى من مصر وقسم هذا المبلغ على النحو التالى : ١٥٠.٠٠٠.١٥ جنيه قيمة سندات بفائدة قدرها ٧٪ ، وكان قد اتفق أن يستهلك من قيمه هذه الفائدة نسبة قدرها ٢٪ ، ومابقى من رأس المال وقدره ٥٠٠.٠٠٠.١٥ جنيه ، فهو عبارة عن قيمة سندات عادية ساهمت الحكومة المصرية بنصف قيمتها ، والبالغ قدرها ٥٠٠.٠٠٠.٥٠ جنيه مصرى وقد اتفق على أن يكون للحكومة المصرية الحق فى تعيين ٣ مديرين من جملة المديرين المخصصين لادارة هذه القومبانية ، والبالغ عددهم ستة افراد وتقرر أن يتقاضى كل منهم مرتب شهرى قدره ٥٠٠ جنيه مصرى ، وقد اشترط أن تستهلك هذه السندات فى مدة اثنتى عشرة سنة ، وأن تحصل مصر على ربح قدره ١٠٪ ، وأن يكون لها الحق فى شراء أسهم القومبانية بقيمة ثمنها الاصلى ولكن على الرغم من انشاء هذه القومبانية الا انها باءت بالفشل ، حيث صفيت أموالها عام ١٨٦٨م ولم يشاء القدر لها ، أن تؤدى مهمتها بالنجاح . انظر كتاب ريتشارد هيل « النقل فى السودان » ص ٩ وانظر المحفوظ رقم ١٥ من محافظ مجلس الوزراء (السودان) .

Hill, Richard : Sudan transport. op. cit. P. 8.

(٩)

المنازل ويعمل والى جده أسباب معارضته الى أنه في حالة تنازل السلطان العثماني عن هذين المينائين الى مصر ، فإن ميناء جده ، سوف يحرم من مجيء عدد كبير من السفن المحملة بالبضائع لأنها ستتحول بالنالى الى مينائى سواكن ومصوع ، وهناك تفرغ حمولتها ، ويتم نقلها بعد ذلك الى مصر بواسطة السكة الحديد ، وازاء هذا الموقف رد الخديو على السلطان العثماني بقوله :

« ان انشاء السكة الحديد بين مصر والسودان ، ليست من الأمور السهلة ، ولا يمكن البت فيها في سنة أو سنتين ، بالإضافة الى أن مال الشركة العريضة ، لا يكفى لد هذه السكة ، ولكن في امكانه أن يمد السكة الحديد فقط بين مصر والسودان مع النيل زيادة على ذلك فإن مد هذه السكة يحتاج الى مدة طويلة تتراوح فيما بين ٣٠ ، ٤٠ سنة ، وان البضائع التي ترد الى جده من الهند والعراق واليمن تأتى اليها مباشرة ، وكذلك البضائع التي تأتى الى مصر ، تأتى الى السويس مباشرة ، فالسفن ليست في حاجة الى تفرغ حمولتها في سواكن أو مصوع ، ثم تنقل بعد ذلك الى مصر ، بواسطة السكة الحديد ، فلو تم ذلك ل زاد من تكاليف نقلها الى مصر (١٠) . »

واضح من هذا الخطاب أن اسماعيل ، كان يريد أن يقلل من أهمية سكة حديد السودان ، حتى لا يعمل السلطان العثماني من جانبه على عرقلة تنفيذها ، وخاصة بعد أن أفهمه والى جده بأهمية مينائى سواكن ومصوع ، ونصحه بعدم التنازل عنهما الى مصر ، ولكن يبدو أن السلطان افتتخ بوجهة نظر اسماعيل ، والدليل على ذلك أنه وافق على منحه هذين المينائين (١١) وعلى اثر ذلك شكر السلطان العثماني ، على هذه الموافقة الجليلة (١٢) .

-
- (١٠) محافظ أبحاث السودان - دفتر ٢١ عابدين تركى ، وثيقة ١٠٢ ص ٢٨٣ في ٢٨ القعدة سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .
- (١١) وثيقة ١٥ في ٨ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .
- (١٢) محافظ أبحاث السودان - دفتر ٢١ عابدين - وثيقة ٢٥ ص ٢٠٣ في ٢٣ جماد أول سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

بعد ذلك قرر اسماعيل مد كطين من سكة حديد السودان (١٣) ،
يبدأ أحدهما من أسوان وحتى الخرطوم ، ويبدأ الآخر من بربر أو شندى
على النيل النوبى الى سواكن أو مصوع على البحر الأحمر ، وذلك لأن
هذين المينائين هما المنفذان الوحيدين للسودان ، وهما اللذين يربطونه
أيضا بالعالم لخارجى (١٤) .

٣ - البعثات :

بعد أن انتنع الخديو اسماعيل بأهمية هذا المشروع ، قرر أن يرسل
عددا من البعثات الكشفية ، لكشف بعض المناطق المزمع مد السكة الحديد
من خلالها ، وذلك لعمل الدراسات اللازمة لمعرفة مدى صلاحيتها من
عدمه ، وكان اسماعيل يقدم على مشروعه بكل حذر ، خوفا من غدر السلطان
العثمانى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كان يخشى ملك الحبشة ، لأنه
فى حالة نشوب أية حرب بين الدولتين فإن هذا سوف يؤدي الى تدمير
هذه السكة ، وخاصة خط الشرق ، الذى يربط بين سواكن وبربر (١٥)
واكن على الرغم من هذه المخاطر المحتملة ، إلا أن اسماعيل بدأ فى تنفيذ مشروعه ،
وذلك بإرسال البعثات الكشفية الواحدة تلو الأخرى .

— البعثة الاولى :

فى عام ١٨٦٤ أرسل اسماعيل ، بعثة كشفية مكونة من اثنين من
المهندسين الانجليز ، كان يدعى أحدهما برى Bray ويدعى الآخر وولكر
Walker وكان هذان المهندسان تابعين لشركة وورنج برزر لندن
Waring brother London وقد زودت هذه البعثة أيضا بطبيب وطباخ ومترجم ،
واثنين من اغوات دار الضيافة ، وذلك لقيامها باكتشاف المنطقة التى تمتد

(١٣) Mandour El-Mahdey : op. cit. P. 77.

(١٤) د. صلاح الدين الشامى : المصدر السابق : صص ١٠ — ١١ .

(١٥) Hill, R : Sudan transport. op. cit. P. 9.

بين أسوان وكركسكو ، وزودت كذلك بعدد من القرب اللازمة لحفظ المياه (١٦) ، بالإضافة الى تزويدها بكمية من الاطعمة التى تكفى لمدة ثلاثة شهور وقد تضمنت هذه الكمية من الاطعمة اللحوم المحفوظة والسردى والفاصوليا والبطاطس وبعض المعلبات ، والارز والسمن والجبن والبقسماط ، زيادة على ذلك فانها زودت بنحو ١٢٠ زجاجة بيرة ، ٢٤٠ زجاجة نبيذ وكمية من الشاى ، وبعدد من الشوك والملاعق (١٧) . وكان الخديو قد أمر حكمدار السودان أن يعين برفقة هذه البعثة دليلين ، من لهم دراية بأحوال طرق الصحراء ، وذلك لاقتياد البعثة فى الطريق الصحيح ، واشترط الخديو أن يكون هذان الدليلان من جماعة حسن خليفة ، الذى تنبه عليه أيضا أنه فى حالة عدم معرفتهما لأقصر الطرق ، فانهما سوف يعرضان أنفسهما لأشد العقاب ، وطلب اسماعيل من حكمدار السودان كذلك أن يعين خفيرين وموظفا لمرافقة البعثة (١٨) واشترط أن يكون الموظف كممثل للحكومة الخديوية . وبالإضافة الى ذلك كله فان البعثة زودت ببغليين وبعدد من الجمال ، لاستخدامهم فى نقل أفراد البعثة (١٩) .

وبعد أن انتهت هذه البعثة مهمتها ، كتبت تقريرا ، أوضحت فيه خط سيرها الذى بدأ من أسوان وحتى كركسكو ، ومنها عبرت صحراء القصور ، الى أبو حمد ، ومنها الى شندى ومن شندى الى المنة ، وكانت البعثة قد مرت بعدد من الأبار الموجودة بصحراء بيوضة ، التى تميزت مياهها بالوفرة ، حيث كانت تكفى القوافل والمسافرين ، وأوضحت البعثة أيضا

Ibid. P. 9.

(١٦)

(١٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٤٩ معية تركى ، وثيقة ٢٦،

ص ٧٣ فى ١٦ جماد آخر سنة ١٢٨١ الموافق ١٨٦٤م .

(١٨) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٤٥ معية تركى ، وثيقة ٤ ص

٢٤ فى ١٦ جماد ثان سنة ١٢٨١ الموافق ١٨٦٤م .

(١٩) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٤٥ وثيقة ٢٧ ص ٨٥ فى ٢٩ جماد

ثان سنة ١٢٨١ الموافق ١٨٦٤م .

أن هذا المشروع سوف يتكلف حوالى ٩ مليون من الجنيهات المصرية ، ويستغرق العمل فيه مدة تتراوح فيها بين ٦ ، ١٠ سنوات (٢٠) .

— البعثة الثانية :

أرسلت مصر عام ١٨٦٥ بعثة كشفية أخرى تحت رئاسة المسيو هجلين وذلك لكشف الطريق الممتد بين عقيق على البحر الأحمر والخرطوم الواقعة عند ملتقى النيلين الأزرق والابيض وذلك لدراسة هذه المنطقة، وبعد أن انتهت هذه البعثة مهمتها ، قررت أنه فى الامكان مد خط حديدى يربط عقيق بقوز رجب ، ويبلغ طوله ١٧٠ كم ، وبعد ذلك يمتد من قوز رجب الى الخرطوم ، بحيث يبلغ طوله ١٨٠ كم ، وتتضى الخطة أيضا بأن يمر هذا الخط بعفانيت ، التى تقع على مسافة ٤٠ ميلا من عقيق ، ومن بعدها يسير مسافة ٨٠ ميلا الى منطقة وندي الواقعة فى وادى لنجب حيث يقابل طريق القوافل الرئيسى الذى يربط كسلا بسواكن ، ويرى أن يتجه هذا الخط بعد ذلك الى طريق وادى أرتاب ، بحيث يسير من خلاله حتى يصل بعد ٧٠ ميلا الى راسى Rassi ، ومنها الى فليك Filik ، ثم الى قوز رجب ، ويرى هجلين أن هذا المشروع ممتاز ، بسبب توفر كثير من المزايا الخاصة به والتى لا تتوفر لغيره من المشروعات الأخرى ، مثل مشروع سواكن — بربر ، الذى يصعد تلال البحر الاحمر بعد مسافة ٨٠ ميلا من خط الساحل ، ويرتفع الى ٢٠٠٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، ويصعد طريق مصوع — كسلا الى ارتفاع ٨٥٠٠ قدما ، على حين أن طريق عقيق — الخرطوم ، لا يصعد أكثر من ١٦٥٠ قدما ، وخاصة فى منتصف المسافة الواقعة بين خط الساحل ، وقوز رجب ، وكان من مميزاته أيضا أنه يتجنب كثيرا من العقبات (٢١) .

— البعثة الثالثة :

أرسلت مصر بعثة أخرى ، كانت تحت قيادة بارسونز وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين بربر — ادارما — سواكن وبعد أن أنهت هذه البعثة

Hill, R. : Sudan Transport. op. cit. PP. 9-10. (٢٠)

(٢١) د. صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ، ص ٢٥ — ٢٧ .

مهمتها قررت ان يمد خط حديدى يبدأ من بربر الى ادارما ، بحيث يسير على الضفة اليمنى لنهر العظيرة ، واقتُرحت هذه البعثة أن يتفرع هذا الخط الى فرعين ، يتجه أحدهما الى توز رجب ، ثم الى مجاتا Mugatta ، بعد ان يعبر نهر العظيرة الى ضفته اليسرى ، ثم يتجه بعد ذلك الى القصارف ، فسنكات ، ويتميز هذا الخط بأنه يربط بين الأقاليم النيلية بصفة عامة ، وسواحل البحر الأحمر بصفة خاصة ، كما أنه لا يحتاج الى العديد من الكبارى أو الجسور أو المعابر (٢٢) .

— البعثة الرابعة :

على الرغم مما حققته البعثات السابقة من نتائج ، الا ان اسماعيل ، قرر ارسال بعثة أخرى . غفى عام ١٨٦٧ أصدر امرا الى اسماعيل بك الفلكى ، لى يقوم على رأس بعثة كثيفة لدراسة امكانية مد سكة حديد تبدأ من سواكن الى شندي ، أو من سواكن الى بربر ، وقد اصطحب معه المهندس هاملتون لى سميث Hamilton Lie Smith عضو جمعية المهندسين الملكية بلندن ، ومهندس سكك حديد مصر سابقا ، وبعد أن أنهت هذه البعثة مهمتها ، كتبت تقريرا ، تضمن كافة المشاهدات والملاحظات . فقد جاء به ان طول الخط الذى يبدأ من سواكن الى شندي يبلغ حوالى ٥٨٤ كم ، ويمكن تنفيذه بسهولة ، بينما يبلغ طول الخط الثانى الذى يبدأ من سواكن الى بربر حوالى ٣٠٠ ميل ، ولكن على الرغم من قصر طوله ، الا أنه لا يمكن تنفيذه بسهولة ، وذلك لوجود الجبال المرتفعة ، والوديان الكثيرة التى — تعترض خط سيره (٢٣) بالإضافة الى ذلك ، فإنه يوجد به عدة انحدارات ، تبدأ اولى هذه الانحدارات من سواكن الى العظيرة ، ويبلغ طولها حوالى ٩٠ ميلا وارتفاعها ١٢٠٠ قدما ، ويبدأ ثانيها من خور العظيرة وحتى كوكرب ، ويبلغ طولها ٤٠ ميلا ، وارتفاعها يتراوح فيما بين ٦٠٠ ، ١٨٠٠ قدما ، ويبدأ ثالثها من كوكرب الى اربوك ، ويبلغ طولها حوالى ٦٠ ميلا وارتفاعها حوالى ٩٠٠ قدما ، ويبدأ رابعها من اربوك الى بربر ، ويبلغ طولها حوالى ٥٠ ميلا ، وقد جاء بالتقرير أيضا ان تنفيذ هذا الخط يحتاج لمدة قدرها ١٨

(٢٢) د. صلاح الدين الشامى : نفس المصدر ، صص ٣١ — ٣٢ .

(٢٣) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٦٠ وثيقة ٨٩ فى ٢٤ صفر سنة

١٢٨٤ الموافق ١٨٦٧م .

شهرًا ، وتبلغ تكاليف الكيلو متر الواحد حوالى ٢٩٥٠ جنيهًا ، بما فى ذلك ثمن المعدات الخاصة بالمشروع (٢٤) .

— البعثة الخامسة :

لم يكتف اسماعيل بالفتائج السابقة ، بل قرّر فى عام ١٨٧١ إرسال بعثة اخرى ، لى تقوم بعمل مسح شامل ، لمنطقة النوبة بصفتها المنطقة التى سوف يبدأ فيها انشاء أول خط حديدى يربط مصر بالسودان . وكانت هذه البعثة تحت رئاسة المستر فولر Mr. Foulter ، وبعد ان اكملت هذه البعثة استمداداتها ، ذهبت الى أسوان ، ومنها واصلت المسير الى بلدة شندى ، وهناك تمكنت من عمل المسح اللازم . بعد ذلك كتب فولر تقريرًا ، ضمنه كثيرًا من الملاحظات والمشاهدات التى كان منها ضرورة انشاء المحطة النهائية لهذا الخط الحديدى عند بلدة المتمة ، الواقعة على الشاطئ الايسر للنيل امام شندى ، والتى تقع على خط عرض ٢٤° ، ١٦° شمال خط الاستواء ، وعلى خط طول ٤٥° ، ٣٢° شرقى جرينتش ، وقد تم اختيار بلدة المتمة كمحطة نهائية ، لانها تتوسط المسافة بين بربر والخرطوم ، فهى تقع على بعد ١٦٠ كم من كل منهما . كما انها تعتبر مركزًا تجاريًا هامًا ، تتجمع فيه السلع التجارية ، كما ان شندى تعتبر ملتقى طرق القوافل التى ترد من الخرطوم ومنطقة النيل الأبيض وسواكن وابى حراز ومناطق النيل الأزرق الاخرى ، ولكن على الرغم من أهمية موقع بربر ، الا ان السفر اليها فى النيل كان يتوقف لمدة شهرين فى السنة ، وذلك لشدة التيار ، بالاضافة الى وجود بعض الصخور ، التى تعترض مجرى النهر ، وخاصة بالقرب من مصب نهر العظيرة (٢٥) .

وجاء بالتقرير أيضا وجه الاختلاف بين صحراء النوبة ، وصحراء بيوضة ، فالأولى تميزت بانها مقفرة ، وبها وديان عميقة ومياه آبارها مالحة ولا تصلح للواهورات ، بينما تميزت الثانية بانها مستوية السطح وتتوفر فيها

(٢٤) محافظ مجلس الوزراء (السودان) محفظة ١٥ .

(٢٥) تقرير المستر فولر : المصدر السابق .

المياه العذبة والأشجار والأعشاب التي تصلح كوقود للوابورات . وجاء بالتقرير الإشارة الى إلغاء خط كورسكو ، والبدء في خط حلفا - شندى ، وتقرر أيضا عدم مد السكة الحديد بجوار الجانب الأيسر للنهر ، وذلك لوجود الرمال المتحركة بكثرة ، على هذا الشاطئ ، بالإضافة الى أنه مستقيم ، ولا يحتاج الى عمل قناطر عليه ، وكان قد تقرر انشاء محطة عند أمبيجول ، لأنها تعتبر المدخل الى صحراء بيوضة ، زيادة على أنها تقع على منطقة صلبة من الشاطئ وأنها تقع في ملتقى وادى المقطم ، الذى يمكن استغلاله في مد السكة الحديد من خلاله بسهولة ، وينقسم هذا الخط الذى تقرر انشاؤه الى ثلاث اقسام على النحو التالى : —

— الخط الأول ، ويبدأ من وادى حلفا وحتى بلدة كوهه الواقعة على الشاطئ الأيمن للنهر ، ويبلغ طوله حوالى ٢٥٩ كم ، وكان قد تقرر أن تنشأ قنطرة على النهر عند بلدة كوهه .

— والخط الثانى ويبدأ من كوهه الى أمبيجول ، الواقعة على الشاطئ الأيسر للنهر ، ويبلغ طوله ٣٤٩ كم .

— الخط الثالث ويبدأ من أمبيجول الى شندى ، مارا بصحراء بيوضة ، ويبلغ طوله ٢٨١ كم ، ويبلغ الطول الكلى لهذا الخط ٨٨٩ كم ، ولو مد الى الخرطوم لأصبح طوله ١٣٠٠ كم (٢٦) وقدرت التكاليف الاجمالية لهذا الخط بنحو ٤ مليون جنيه مصرى ، بما فى ذلك تكاليف المحطات والمخازن والمهمات والورش . باعتبار أن الكيلو متر الواحد يتكلف حوالى ٤٥٠٠ جنيه مصرى ، وقد قسم هذا المبلغ على النحو التالى ١٥٠٠.٠٠٠ ر. ١٥٠٠.٠٠٠ جنيه مصرى قيمة اجور عمال ، وصناع ومهمات ، ٢٥٠٠.٠٠٠ ر. ٢٥٠٠.٠٠٠ جنيه مصرى تكاليف بناء مخازن ومحطات وورش ، بالإضافة الى زيادة قدرها ٢٠٠.٠٠٠ ر. ٢٠٠.٠٠٠ جنيه ، قيمة تكاليف السطح المائل (رصيف) ويستغرق العمل فى هذا الخط حوالى ٣ سنوات (٢٧)

وكان منزجر باشا ، قد اقترح على الخديو اسماعيل أن الطريق الذى

(٢٦) نفس المصدر .

(٢٧) نفس المصدر .

يبدأ من شرق كورسكو الى بربر هو اقرب الطرق ، بالإضافة الى انه يوجد به آبار ذات مياه عذبة كما انه يساعد على توصيل السكة الحديد من بربر الى مصوع على البحر الأحمر ، واستند منزجر في تحليله ، على النقاط التالية :

أولا — يقصد بإنشاء الخط الحديدى الذى يربط مصر بالسودان الوصول الى مصوع الواقعة على البحر الأحمر .

ثانيا — ان اختيار الحكومة لإنشاء هذا الخط ، هو تجنبها القيام بالأعمال الصعبة الموجودة بالمنطقة الواقعة بين أسوان ووادى حلفا .

ثالثا — يؤدى إنشاء هذا الخط الى الاستغناء عن عمل السطح المائل المزعم إنشاؤه عند أول شلال ، لأن المراكب تمر فى هذه المنطقة دون أدنى صعوبة .

رابعا — يؤدى هذا الخط الى تفادى عمل قنطرتين ، احدهما على النيل والأخرى على نهر العظيرة .

خامسا — يجب ان يبدأ العمل فى هذا الخط من شمال أسوان بدلا من البدء فيه من وادى حلفا ، لان بلدة حلفا فقيرة وقليلة العمران بخلاف أسوان التى يمكن الحصول منها على المهمات والمؤن .

سادسا — يمكن انهاء هذا الخط فى مدة وجيزة وسوف يعود هذا الخط على مصر بالفوائد الكثيرة التى لاتعد ولا تحصى (٢٨) .

واضح أن منزجر كان يحبذ تنفيذ الخط الحديدى ، الذى يربط مصوع وبربر ، ربما لانه كان يقصد من وراء ذلك ، خدمة المصالح الاوربية وهذا من المؤكد ، وربما كان يقصد أيضا خدمة المصالح المصرية وهذا من المحتمل .

(٢٨) نفس المستتر .

— البعثة السادسة :

لم يكتف اسماعيل بكل هذه الدراسات ، بل قرر ارسال بعثة أخرى كانت تحت رئاسة ، عبد القادر بك ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين اسوان وبربر ، حتى يتأكد من صحة النتائج التى ذكرها منزجر باشا ، وقد ورد بتقرير هذه البعثة أن طريق اسوان — بربر ملائم لد السكة الحديد من خلاله ، ويبلغ طوله ٤٨٥ كم ويتميز هذا الخط بأنه أقل طولاً من الخط الذى اكتشفه فولر ، والذى يبدأ من حلفا وحتى المنة ، وكل ما يلزمه هو انشاء قنطرة على نهر العظيرة (٢٩) .

— البعثة السابعة :

تمثلت البعثة السابعة فى قيام الكولونيل كولستون على رأس عدد من الجنود المصريين من القاهرة عام ١٨٧٣ لمسح المنطقة الواقعة بين قنا على النيل ، وبرنيس على البحر الأحمر ، وذلك تمهيدا لد سكة حديد من خلال هذه المنطقة وقد كتب كولستون تقريراً وافياً ، ضمنه مشاهداته وملاحظاته عن طبيعة هذه المنطقة وأكد فى تقريره امكانية مد خط حديدى يربط بين النيل والبحر الأحمر وذلك لخدمة البلاد (٣٠) .

— البعثة الثامنة :

وفى نفس العام قام الكولونيل بوردي Burdy على رأس بعثة أخرى لكشف المنطقة الممتدة من برنيس على البحر الأحمر ، وحتى بربر (٣١) على

(٢٩) سجل رقم ٢٨٧٣ ، وثيقة ٤٨٦ ص ١٢٢ فى ١٩ جهاد اول سنة ١٢٩٠ الموافق ١٨٧٣م .

Colonel Colston, R.E. : Journal D'un voyage du caire A (٣٠)
Kenah, Berenice et Berber et retour par le desert de korosko. vol. II. PP. 489-568.

(٣١) انظر خريطة المنطقة الواقعة بين برنيس على البحر الأحمر وبربر على النيل النوبى فى كتاب جهود مصر الكشفية للمؤلف .

النيل ، تمهيدا لد خط حديدي يربط النيل النوبي بالبحر الأحمر ، وكتب بوردي تقريراً شاملاً ، ضمنه مشاهداته وملاحظاته ، لهذه المنطقة ، وذكر أيضاً أنه لا يوجد أى عقبات أمام مد سكة حديد (٣٢) .

— البعثة التاسعة :

لم يقتصر نشاط اسماعيل على منطقة النيل النوبي فحسب بل امتد أيضاً إلى منطقة غرب السودان ، ففى يوم الاحد ١٤ من شهر ذى القعدة سنة ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥م أرسل بعثة كشفية تحت رئاسة المسيو سمسون Semson وذلك لارتداد سكة الدبة — الفاشر ، وكان عليها أن تتجه من بربر إلى الخرطوم ، ومنها إلى دارفور ، وذلك لعمل الدراسات اللازمة لد السكة الحديد إلى غرب السودان ، وفى اليوم التالى لقيام هذه البعثة ، أعقبتها بعثة أخرى ، بدأت مهمتها من دنقلة إلى دارفور أيضاً ، وكانت تحت رئاسة المسيو بكويل Bekuel وذلك لنفس الغرض (٣٣) . وفى نفس العام كذلك قام الكولونيل كولستون ، على رأس بعثة كشفية أخرى ، من بلدة الدبة إلى الأبيض (٣٤) وعندما وصلت بعثته إلى الأبيض قابل هناك يروت بك ، بعد ذلك اتجه معاً إلى الخرطوم (٣٥) .

بعد كل هذه الدراسات انتهى اسماعيل إلى قراره النهائى ، بعد السكة الحديد إلى السودان ، والتي بلغ طولها ٢٤٥٠ كم واشتملت على ثلاث خطوط على النحو التالى :

— الخط الاول ويبدأ من حلفا وحتى المتمة ، ويبلغ طوله ٨٠٠ كم .

Colonel Purdy : Une reconnaissance entre Berenice et Ber-ber. Serie II. N. 9. PP. 431-445.

(٣٣) محفظة ٥٢ وثيقة ٣٥٩ فى ١٨ القعدة سنة ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥م

(٣٤) انظر خريطة المنطقة الواقعة بين الدبة والأبيض بكتاب جهود

مصر الكشفية فى افريقيا للمؤلف

Coloston, R.E. : Le route entre Debbah et El-Obeyd (٣٥)

Bul, Soc. Kh. Geog. N. II. PP. 203-208.

— الخط الثانى ويبدأ من الدبه الى الفاشر ، ويبلغ طوله ٨٠٠ كم .

— الخط الثالث ويبدأ من شندى الى سواكن على البحر الأحمر ويبلغ طوله ٨٥٠ كم (٣٦) .

٤ — انشاء المحطات :

بعد الانتهاء من كل هذه الدراسات ، بدأت مصر فى ارسال المهمات والمعدات اللازمة ، لانشاء المحطات ، وكان قد اتفق أن تقوم مراكب الأهالى بنقل هذه المهمات ، فى نظير أن تتقاضى قرشا واحدا ، ٢٤ غضة عن نقل القطعة الواحدة من الأخشاب اللازمة لعمل الفلنكات . بينما لو استخدمت صنادل الحكومة فى نقل هذه المهمات ، لزادت تكاليف النقل ، لأنها كانت ستتقاضى أجرا قدره ، ١٥ قرشا ، ١٤ غضة عن نقل نفس القطعة ، لذلك فضل أن تقوم مراكب الأهالى بنقل هذه المهمات والمعدات (٣٧) وقد عين المستر كيلجور Kilgour للقيام بمهمة فرز الأخشاب التى ستستخدم كفلنكات للسكة الحديد (٣٨) ، زد على ذلك فإن اسماعيل عين مأمورا ، لمتابعة تنفيذ الاعمال فى مشروع السكة الحديد الجديدة ، وعرف هذا المأمور باسم ، مأمور أشغال السكة الحديد (٣٩) وبعد أن تفقد هذا المأمور أحوال العمل فى المشروع طلب من الخديو أن يرسل له ستة مهندسين من أرباب الرتب الصغيرة ، على أن يكون رئيسهم برتبة بكباشى أو قائمقام ، وذلك لتدعيم القوة الموجودة فى ميدان العمل (٤٠) بالإضافة الى ذلك غانه طلب عددا آخر من العمال ليقوموا ببناء الجسر ، الذى سوف توضع من فوقه اشربة السكة الحديد المزمع انشاؤها . فعلى الفور طلب خيرى باشا من مدير دنقلة ، أن يرسل لمأمور أشغال السكة الحديد حوالى ٣٠٠٠

(٣٦) صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ص ١٣ .

(٣٧) دفتر ١٤٨ مكية عربى ، وثيقة ١٣ ص ٧ فى ١٩ شعبان ١٢٩٢ .

الموافق ١٨٧٥ م .

(٣٨) نفس المصدر .

(٣٩) محفظة ٥٢ ، المصدر السابق .

(٤٠) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥ — وثيقة ١٢٨ ص ١١١ فى

٣ رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

عامل للمساهمة في مشروع مد السكة الحديد وكلفه أيضا أن يزود هؤلاء العمال بحوالي ٣٥٠٠ أردب ذرة ، على شرط أن تخصص اثنتان على جانب الحكومة (٤١) . ولكن عندما بدا مدير دنقلة في جمع العمال ، واجه صعوبة ، وهى أن العمال رفضوا الذهاب الى ميدان العمل ، وعللوا رفضهم في الذهاب الى مواقع العمل بأن زراعتهم سوف تتوقف وتتعرض الى الاهمال ، بالإضافة الى أن عددهم قليل ، وقالوا أنهم في حالة جمعهم بالقوة ، فإنهم سوف يضطرون الى الفرار ، وسوف يترتب أيضا على ذلك بالتالى خراب البلاد . ولكن لما علم خيرى باشا بهذا قال :

« أنهم ليسوا قليلو العدد ، كما يدعون ، بل أنهم كثيرون فهم يذهبون الى جهات بحر الغزال ، وخط الاستواء وكردفان ودارفور ، وهناك يقومون بالاغارة على سكان هذه البلاد ، لاسترقاقهم ، والاتجار فيهم ، مع أن هذه التجارة ممنوعة » (٤٢) .

لما علم الخديو اسماعيل بخبر عصيان هؤلاء العمال ، المقرر جمعهم من دنقلة ، للعمل في مشروع السكة الحديد ، طلب من حكمدار السودان ، أن يجمعهم بالقوة الجبرية ، وفي حالة رفضهم ترسل لهم عساكر الباشبوزق لجمعهم وارسالهم الى محل العمل قهرا (٤٣) زيادة على ذلك فإنه أصدر أمرا ، بضم اسوان وحلفا الى دنقلة ، حتى يتمكن مأمور ائشغال السكة الحديد من ممارسة سلطاته بحرية وعلى نطاق واسع ، بالإضافة الى مواقفه يكتشف تتضمن الاموال والعشور المقررة على سكان هذه البلاد ، حتى يتسنى

-
- (٤١) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٣ عابدين ، صادر تلغراف ، وثيقة ٥٠٨ ص ٨٦ في ١٦ رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .
- (٤٢) دفتر ٢٢ عابدين ، صادر تلغراف ، وثيقة ٣٤٢ ص ٧٣ في ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .
- (٤٣) دفتر ٢٢ عابدين ، وثيقة ٢٦٣ ص ٥٩ في ٧ ربيع أول ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

له جميعها بسهولة (٤٤). وذلك للاستفادة بها في تنفيذ ذلك المشروع (٤٥) وبعد ان اكتملت المهام والعمال ، بدأ العمل في بناء المحطات الخاصة بالسكة الحديد في كل من اسوان والشلال وحلفا .

— محطة اسوان :

انشئت محطة اسوان ، في الجهة الشرقية من نهر النيل ، وقد استخدم في بنائها الطوب اللبن ، والمونة الطينية ، وقد احيطت حواف نوافذها وعقودها ، بأحجار من الدبش الصغير الحجم وتكونت هذه المحطة من طابق واحد يضم ثلاث غرف .

— محطة الشلال :

بنيت هذه المحطة بجوار جزيرة فيلة ، الواقعة في الجهة الشرقية من النهر ، وقد بنيت ايضا من الطوب اللبن والمونة الطينية ، وهى مثل محطة اسوان من حيث التصميم ، وتتكون من ثلاث غرف ، وهى مستطيلة الشكل (٤٦) .

— محطة حلفا :

توجد محطة حلفا في قرية عنجسى ، التابعة لبلدة حلفا ، وكانت هذه القرية تتكون من ١٥ منزلا سكن جميعها بعدد من موظفى الحكومة ، وزودت بطاحونة ، ومخزن صغير للجبخانه . وقد بنى في محطة حلفا جسر ، بلغ طوله ١٤ كم وذلك لتوضع فوقه القضبان الحديدية المراد مدها وقام العمال ايضا بصناعة كميات كبيرة من الطوب اللبن ، بلغ عددها حوالى ١٤٠٠٠٠ ر١٤٠٠٠٠

(٤٤) دفتر ٢ اوامر عربى وثيقة ٣٢ ص ٨٢ في ١٠ شعبان ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥ م .

(٤٥) دفتر بدون رقم اوامر عربى — وثيقة ٢٢٦ ص ١٠٤ في ١٠ شعبان سنة ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥ م .

(٤٦) محفظة ٥٢ وثيقة ٣٥٩ ، المصدر السابق .

طوبه وذلك لاستخدامها في بناء دار للحكومة ، بالإضافة الى بناء عدد من المنازل المخصصة لسكنى الموظفين والمهندسين ، وبنى كذلك عدد من الشوارع والمخازن ، وبنى بها أيضا مستشفى وسوق وجامع ومدرسة لتعليم أبناء الموظفين (٤٧) .

كان العمل في مد شريط السكة الحديد ، يسير جنبا الى جنب مع بناء المحطات ، فقد مد على الضفة اليمنى من النهر جزء من خط أسوان - شندى ، بلغ طوله ٥٣ كم وكان قد وصل هذا الخط الى بلدة سريس (٤٨) ولم يستمر العمل في هذا الخط بل توقف بصفة نهائية منذ عام ١٨٧٨م ، بعد أن اتفق عليه مبلغا وقدره ٥٠.٠٠٠ جنيه مصرى (٤٩) ويرجع السبب في توقف العمل في هذا الخط الحديدى ، الى عاملين أساسيين أولهما تدهور الموقف المالى فى مصر ، وثانيهما رفض غردون باشا لتنفيذ هذا المشروع (٥٠) ويرجع رفض غردون الى عدة عوامل منها أنه خشى عدم استنادة بريطانيا اقتصاديا من هذا المشروع ، ومنها أيضا أنه فضل أن يظل السودان منفصلا عن مصر ، حتى يمكن له التصرف في شئونه كيفما يحلو له ، وخاصة وأنه كان في ذلك الوقت صاحب الكلمة المسموعة لدى الخديو اسماعيل ، ولكن يعاب عليه عدم فكائه وبعد نظره تجاه تنفيذ هذا المشروع ، فلو كان غردون وافق على تنفيذه لانتقد نفسه ، ومن معه من غدر الدراويش ، الذى راح هو ضحيتهم ، فكان السبب الأساسى لهذه الكارثة الشنيعة ، هو عدم وصول النجيدات العسكرية على وجه السرعة ، وذلك لصعوبة خطوط المواصلات ، التى تربط مصر بالسودان ، فى ذلك الوقت . ويمكن تعليل وقف تنفيذ المشروع أيضا الى انشغال اسماعيل بحروبه ضد الحبشة وهى التى كلفته الكثير ، وربما يرجع ذلك الى أنه شعر بالمؤامرات التى كانت تحاك ضده ، لخلعه من حكم مصر ، فأهمل هذا المشروع الحيوى .

(٤٧) نفس المصدر .

(٤٨) د . صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٤٩) Report on the Egyptian provinces. op. cit. P. 26.

(٥٠) د . صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ص ١٤ .

ولكن على الرغم من توقف العمل في تنفيذ هذا المشروع ، الا ان الحكومة المصرية قامت بتشغيل جزء منه ابتداء من محطة أسوان وحتى محطة قرية الشلال ، وقد بلغ طول هذا الجزء الذى تم تشغيله حوالى ٧ أميال وبلغ إيراده في شهر ديسمبر عام ١٨٧٥ ١٠.٠٠٠ قرشاً (٥١) فلو قدر لهذا الخط النجاح ، لعاد على مصر والبلاد الاخرى بالنفع والخير الوفير .

استمر توقف مد السكة الحديد الى السودان حتى عام ١٨٩٦م فعلى هذا الامام بدأت كل من بريطانيا ومصر العمل معا على استرداد السودان ، وفي نفس الوقت وفي اثناء عمليات الزحف العسكرية بدأت الدولتان في مد السكة الحديد الى السودان وذلك لتمكين القوات المتحاربة من الحصول على احتياجاتها من مؤن وذخائر بسهولة في نهاية العمليات العسكرية كانت السكة الحديد قد وصلت الى الخرطوم ، وكان لها دور هام في نقل الانتاج السودانى الى موانئ التصدير (٥٢) وقد تطور الاقتصاد السودانى ، بسبب مد السكة الحديد التى ربطت شرقه بغربه ، ورغم ما اُنتاب انشاءها من صعاب ، تمثلت في عدم استخدام المعدات الحديثة في مد هذه السكة الحديد ، بالإضافة الى عدم معرفة المهندسين القائمين على انشائها ، لطبيعة الأرض السودانية ، زيادة على قلة راس المال ، اللازم لمد هذه السكة (٥٣) . ولم يكن السودان البلد الوحيد الذى سبق غيره في هذا المجال (٥٤) .

وبعد ان انتهت الكتابة عن مد السكة الحديد الى السودان في عصر اسماعيل نتناول موضوع المواصلات السلكية .

(٥١) دفتر ١٧ معية عربى ، وثيقة ٩٠ ص ٥٩ في ٢٥ محرم ١٢٩٣ الموافق

١٨٧٦م .

Numerous authors : op. cit. P. 178.

(٥٢)

Virginia Thompson and Richard Adolf. P. 292.

(٥٣)

(٥٤) لم يعتبر السودان البلد الوحيد الذى دخلته السكة الحديد قبل غيره من دول القارة الأفريقية ، جنوب الصحراء ، فقد سبقته في هذا المجال دولة جنوب أفريقية ، حيث أنشئ أول خط حديدى فيها في ٢٦ يونيو عام ١٨٦٠م ، وكان طوله ٢ ميل ، وفيها بعد اتسع نطاق مد السكة الحديد هناك . انظر:

Centenary of the South Africa Rail ways. P. 1.

ثانيا : المواصلات السلكية :

لم تقتصر أعمال اسماعيل ، على مد خطوط السكة الحديد الى السودان فحسب ، بل أيضا تضمنت مد شبكة واسعة من خطوط البرق والبريد ، لأنها من وسائل الاتصال السريع ، بين البلاد بعضها البعض ، بل وبين شعوب العالم ، وسوف أتناول موضوع البرق والبريد كل على حدة : —

(١) البرق :

قرر اسماعيل ان ينشئ عدة خطوط تليفونية لخدمة البلاد السودانية ، لربطها ببصر ، وذلك لتسهيل نقل الاخبار والتعليمات على وجه السرعة من وإلى المحروسة ، ففي عام ١٨٦٨م تقرر انشاء خط تليفوني يربط القاهرة بسواكن ومصوع (٥٥) ثم مد هذا الخط فيما بعد الى بلدة بعززة وعدرسة ونياخور وبربرة ، وهم من بلدان الساحل الغربي للبحر الأحمر ، ومن المؤكد أن هذا الخط كان لخدمة القوات المصرية المعسكرة هناك وكان قد تقرر أن يتولى عساكر الباشبوزق حراسة هذه الخطوط ، ولكن لما تعذر تنفيذ ذلك تقرر أن يقوم العبيد بحراسته (٥٦) وإلى جانب هذا الخط أنشئ خط يربط بين سواكن وكسلا وبربر (٥٧) وبعد ذلك مد خط من كسلا أيضا الى كوفيت وبوجوس Bogos والقضارف والمتمة ، وفي نفس الوقت مد خط من الخرطوم الى سنار ، ومنها الى فازوغلى ثم الى فادوسي Fadossi (يبدو أنها فامكه) (٥٨) ومد خط كذلك من حلغا الى الخرطوم ، بلغ عدد أعمدته ١٥٧٧٣ عمودا ، كان منهم ٢٧٢ عمودا مصنوعة من حديد الزهر ، كانت قد استوردت من إنجلترا خصيصا لهذا الغرض ، وكانت الأعمدة الحديدية قد استخدمت للمنطقة الواقعة بين حلغا ودنقلة ، ويبدو لكثرة القرصنة الأرضية فيها وأما الأعمدة الخشبية فقد استخدمت في المنطقة الواقعة

Document N. 288, Sudan telegraph departement. (٥٥)

(٥٦) دفتر ٣٩ عابدين ، وثيقة ٥٠١ في ١٦ ربيع ثان سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

Document. op. cit. N. 288. (٥٧)

Document. telegraph. N. 12960. (٥٨)

بين دنقلة والخرطوم ، وبلغ عددها حوالى ١١٥٠١ عمودا (٥٩) وفى عام ١٨٧٣ أنشئ خط تليفرافى آخر يربط بين الخرطوم وكردفان (٦٠) وكان العمل قد انتهى منه فى عام ١٨٧٦ ، وبلغ طوله حوالى ٣٤٠ كم ، وأنشئت له محطتان كانت احدهما فى أم درمان ، والأخرى فى كردفان ، وخصص لكل محطة تليفرافجى لتشفيلها (٦١) وفى نفس العام مد هذا الخط الى دارفور ، كى يربطها مع بقية البلاد السودانية وكان هذا الخط قد نفذ على مرحلتين الأولى ، بدأت من كردفان الى قرية فوجه ، والثانية بدأت من فوجه الى الفاشر (٦٢) وفى عام ١٨٧٤ مد خط يربط الخرطوم بغندوكرو مارا بمحطة كورفا Korfa التى توجد على مسافة ١١٠ ميل من الخرطوم (٦٣) وبلغت تكاليف هذا الخط ، ابتداء من الخرطوم وحتى المديرية الاستوائية حوالى ٣٨ ألف جنيه مصرى (٦٤) .

وقد استخدمت فى انشاء هذه الخطوط كميات كبيرة من المهمات ، والمعدات والأدوات المتمثلة فى الاسلاك وأجهزة مورش ، وبطاريات دانيال وتوتية ، وسلنا الفحاس ، وحامض اللفريك والزنك ، وكميات كبيرة من الاحبار والحبال والتصدير وعدد من ساعات الحائط (٦٥) بالإضافة الى استخدام اعداد كبيرة من المناشير والفئوس والسلالم والخيام والمهندسين والعمال (٦٦)

(٥٩) دفتر ١٨٤٩ وارد معية ، وثيقة ١٤ صفحة ٤٥ فى ٣ ربيع ثان سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

(٦٠) دفتر بدون رقم وثيقة ٥١ فى ٨ الحجة ١٢٩٢ سنة ١٨٧٥م .

(٦١) دفتر ٤١ عابدين ، وارد تليفراف ، وثيقة ٢٠٩ فى ١١ رجب ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

(٦٢) دفتر ٤١ عابدين وارد تليفراف ، وثيقة ٣١٦ فى ٢٧ رجب ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

(٦٣) Document sans date, report des telegraph du Soudan.

(٦٤) دفتر بدون رقم المصدر السابق .

(٦٥) Document. op. cit. N. 288.

(٦٦) دفتر ٤٠ عابدين وارد تليفراف وثيقة ٤١١ ص ٧١ فى ٤ جماد ثان سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

والأعمدة الخشبية والحديدية ، التي وردت من أوروبا خصيصا لهذا الغرض ، وكانت هذه الأعمدة الحديدية نوعين ، أحدها قصير والآخر طويل ، وكان كل عمود من هذه الأعمدة يتكون من كرسى بقاعدة (كرسى بطلبية) ووصلة وسطى وأخرى علوية ، وبلغ ثمن العمود الطويل حوالى ١١٧ شلن ، بينما يبلغ ثمن العمود القصير ١٠٧ شلن (٦٧) .

كانت الأعمدة الحديدية تعيش مدة طويلة ، لأنها لاتتأثر بالعوامل الطبيعية أو بالتسوس أو بالحشرات الأرضية كالقرضة . أما الأعمدة الخشبية فكانت تتأثر بعوامل الطبيعة ، وبالقرضة الأرضية ، التي تجعلها غير قادرة على مقاومة الرياح والعواصف ، فكانت عندما تتعرض لأى نوع من أنواع الرياح تسقط على الأرض تباعا ، وكان العمال يقومون بإصلاحها من وقت لآخر وكانت طريقة الإصلاح المتبعة ، تتم بقطع الجزء المعطوب والقائمة بعيدا ، ثم إعادة تثبيت الجزء السليم فى الأرض من جديد بالاحجار والمونة وكانت هذه العملية تتكرر على مدار السنة مما تسبب عنه قصر هذه الأعمدة ، بحيث أصبحت لاتصلح لأى شئ (٦٨) .

وكان الخديو قد أصدر تعليماته الى باشمهندس التلغراف بمتابعة المرور على هذه الأعمدة حتى يمكن اصلاح ما يتلف منها أولا بأول . ففى عام ١٨٧٦ قام باشمهندس التلغراف بالمرور على خط تلغراف الخرطوم — سنار ورأى أن هذا الخط تتنابه كثير من الأعطال التى أمر بإصلاحها وأمر أيضا أن يقيم العمال بجوار هذا الخط فى مساكن بنيت لهم من القش والأخشاب حتى يتمكنوا من اصلاح ما يتلف منه أولا بأول (٦٩) وكان باشمهندس التلغراف عند المرور على المحطات ، وعندما يجد أحد التلغرافجية غير كفاء فى عمله يقوم بتغييره وأحلال من هو اكفأ منه محله (٧٠) .

(٦٧) دفتر ١٨٤٩ وأرد معية ، المصدر السابق .

(٦٨) دفتر ١٨٤٩ وأرد معية ، نفس المصدر .

(٦٩) دفتر ٤١ عابدين وأرد تلغراف وثيقة ٤٤٣ فى ١١ شعبان ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٧٠) دفتر ٤٠ عابدين — وثيقة ١٩٩ ص ٣٥ فى ١٣ جماد أول سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

ونظرا لكثرة الأخشاب في السودان فقد تقرر أن تستخدم أعمدة للتلفراف بدلا من استيرادها من الخارج ، ففي عام ١٨٧٦م طلب اسماعيل من مدير التاكه أن يعد ٥٠٠٠ عمودا من الخشب من مديريته ، وذلك لاستخدامها في خطوط التلفراف وقد أعد بالفعل الفين من هذه الأعمدة وأرسلوا الى بلدة قوز هجب ، تمهيدا لنقلهم الى بربر ، ولكن عندما طلب من مدير دنقلة أن يقوم بنقلهم أفاد بأن مصاريف نقلهم تساوى ثمن شرائهم من الخارج (٧١) .

وقد تلاحظ أنه عند تركيب أعمدة التلفراف ، لم يراع أن توضع في شكل مستقيم بل كانت تنشأ بطريقة متعرجة مما جعلها تحتاج الى كميات كبيرة من المهمات والمعدات ولكن لما علم اسماعيل بذلك ، أصدر تعليماته الى باشمهندس التلفراف سلامة بك ، بأن يراعى الحقة والتنظيم عند انشاء مثل هذه الخطوط (٧٢) .

وفي نهاية حكم اسماعيل ، أصبحت جميع البلاد السودانية وسواحل البحر الأحمر ، وغرب السودان ، ومديرية خط الاستواء ، مرتبطة بشبكة من خطوط التلفراف ، التي كان لها اثر كبير ، في سرعة توصيل الاخبار والتعليمات لجميع الجهات السودانية وهي على النحو التالي :

— خط يربط بين القاهرة ، ووادي حلفا ، ودنقلة ، والدبه ، ومروى ، وبربر وشندى ، والخرطوم (خط مزدوج) .

— خط يربط بين القاهرة وسواكن ومصوع ، وكسلا والخرطوم (خط مفرد) .

— خط يربط بين الخرطوم وباره والابيض وفوجه وأم شنقة والفاسر (خط مفرد) .

(٧١) دفتر ٤٠ عابدين وارد تلفراف وثيقة ٥٤ في جماد ثان سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٧٢) دفتر ٤١ عابدين وارد تلفراف — وثيقة ٢١٠ في ١١ رجب سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

Report on the Egyptian provin ce. op. cit. PP. 130,146. (٧٣)

— خط يربط بين الخرطوم والمسلمية وأبى حراز وسنار ودارفور وبارة
(خط مفرد) .

— خط يربط بين أبى حراز والقضارف والدوكا والقلابات (خط مفرد) .

— خط يربط بين بربر وقوز رجب وكسلا (خط مزدوج) .

— خط يربط بين كسلا والمحرقه وتيرى (خط مفرد) .

— خط يربط بين كسلا والفيلك وسواكن (خط مفرد) .

— خط يربط بين كسلا واميديب وسنهيت ومصوع (خط مزدوج) .

وقد زودت هذه الخطوط بالمحطات اللازمة ، التى خصص لادارة كل
منها ، ضابط وعشرة عساكر ، واذكر على سبيل المثال وليس الحصر ان
عدد المحطات التى وجدت فى المنطقة الواقعة بين سواكن وكسلا ، بلغ حوالى
عشر محطات (٧٣) وكان السكان السودانيون فى مناطق وجود خطوط
التلغراف يخافون من أسلاكها ، فكانوا لا يحاولون الاقتراب منها اعتقادا بأنها
توصل أصواتهم الى الحكمدارية بالخرطوم (٧٤) .

(٧٤) وصف ميكلين Miklin فى كتابه أوغندا والسودان المصرى ، خط
تلغراف الخرطوم — دارفور بقوله :

« ان المسافة بين كل عمود والآخر ، بلغت حوالى ١٠٠ ياردة ، وان
ثمن العمود الواحد بلغ خمسة جنيهات ، وان الأعمدة كانت مصنوعة
من الحديد المجوف ، وكان كل عمود يتكون من جزئين ، الجزء الأسفل منه ،
كان يدفن فى الأرض ، بعد ذلك يلف حول وسط كل عمود سياج من السلك
الشائك ، وذلك لحمايته من الماشية المallee لحك جسمها فى هذه الأعمدة ،
وكان المواطنون ، يبيتون فى رعب من أسلاك خطوط التلغراف لأنهم كانوا يعتقدون
فى أنها قوة سحرية ، ووصل بهم الأمر الى أنهم كانوا يخشون الكلام بالقرب
منها ، خشية أن تنقل الأخبار التى تسمعها الى الخرطوم . لذلك حذر
السكان التحدث بجوارها ، واعتقادا منهم بأنها من عمل العفاريت حتى أنهم
كانوا يستغربون الأصوات التى تحدثها هذه الأسلاك بسبب تأثير الرياح
عليها ، وقالوا ان هذه الأصوات هى كلام العفاريت » .

— انظر كتاب أوغندا والسودان المصرى ، وانظر تقريرا عن الاقاليم
المصرية فى السودان صفحة ١٣٠ ، ١٤٦ وانظر الوثيقة رقم ٧ فى ٢٤ الحجة
سنة ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨٦٥ م .

(ب) البريد :

اهتم اسماعيل بتنظيم شئون البريد في السودان ، وذلك لسرعة وصول المكاتبات من وإلى مصر ، ومن أجل ذلك أعد عددا من الجمال لاستخدامها في نقل البوستة من السودان إلى مصر ، وقد خصص لهذا الغرض طريقتين ، يبدأ الأولى من الخرطوم إلى بربر ، ويستغرق السير فيه ٤ أيام ثم تواصل الجمال المسير بعد ذلك من بربر إلى أبى حمد فالعتمور فكرسكو ثم أسوان ، وهناك توزع البوستة على الجهات المرسل إليها . ويبدأ الطريق الثانى من الخرطوم إلى بربر ومنها إلى سواكن ، ويستغرق المسير في هذا الطريق تسعة أيام ، ومن هناك تقوم السفن بنقله إلى السويس ثم القاهرة (٧٥) .

لم يقتصر نقل البريد على السودان الشمالى ، بل امتد أيضا إلى مديرية خط الاستواء ، فكانت الخطابات تصل إليها بانتظام بواسطة قيام مجموعة من الأفراد ، مكونة من جنديين ودليل واحد ، وذلك لنقل البريد وتوصيله إلى الجهة المراد إرساله إليها ، وكانت البوستة المراد إرسالها إلى منطقة خط الاستواء توضع في حقيبة من الجلد ، وتغلق بإحكام ، ثم يقوم الجنديان بحملها ، ويمشون جميعا في صورة طابور وكانت حقيبة البريد تحمل بواسطة الشخص الذى يسير في المنتصف . وفي أغلب الأحيان كانت هذه الرحلة تستغرق ٤٠ يوما أو أكثر . وفي خلال موسم الأمطار ، كانت البوستة توضع في صندوق من الصاج ، بدلا من وضعها في الحقيبة الجلدية حتى لا تبلل الخطابات من ماء المطر ، وأما بريد البلاد القريبة فكان يوضع في داخل علب من الخشب (٧٦) . يبدو أنها كانت تشبه الحقيبة الخشبية أو الصندوق الخشبي وكان أفراد مجموعة البريد ، يحملون معهم دفترا يسجلون فيه أسماء المحطات التى يمرون بها . وكان ذلك يتم بالنسبة لبريد البلاد البعيدة .

وفيما بعد تقرر أن تقوم سفن القومبانية العزيزية بنقل البريد من مصر

(٧٥) محفظة ٣٨ معية تركى وثيقة ٩٣ في ١٩ محرم ١٢٨٣ الموافق ١٨٦١م

Repot on the Egyptian provinsec. op. cit. P. 145.

الى السودان ، في يومى الثلاثاء والخميس من كل اسبوع (٧٧) وكانت هذه
أنسفن تبدأ رحلتها الاسبوعية من السويس مارة بالقصر ، فسواكن فمصوص
فأمفيللا Amphila فعصب ففاجورة فزبلع ، فبربرة فزنجبار . وقد
أسست على سواحل البحر الأحمر نقط استراتيجية هامة لحماية هذه السفن
التي تحمل البريد (٧٨) .

لم يكف اسماعيل بهذا القدر من العمل على تنشيط حركة نقل البريد
بين مصر والسودان ، وبقية البلدان الأفريقية الأخرى بل عمل أيضا على تدعيم
نقله ، بالبحث عن الجديد من الطرق ، ففى عام ١٨٧٥ ، أرسل بعثة
كشفية مكونة من عدد من الجنود والضباط والأدلة ، وزودت بعدد من الجمال،
وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين أسيوط ودارفور ، وقد استغرق المسير فى هذه
المنطقة ثلاثين يوما على النحو التالى :

- ٣ يوم مدة المسير بين أسيوط ووادى الجمل .
- ١ يوم مدة المسير بين وادى الجمل وواحة الخارجة .
- ٢ يوم مدة المسير بين واحة الخارجة وواحة باريس .
- ٤ يوم مدة المسير بين واحة باريس ومنطقة الكسابا .
- ٣ يوم مدة المسير بين منطقة الكسابا وواحة سليمة .
- ٤ يوم مدة المسير بين واحة سليمة ومنطقة الكوبية .
- ٥ يوم مدة المسير بين منطقة الكوبية وبئر القطران .
- ٥ يوم مدة المسير بين بئر القطران وجبل أميدوم .
- ٣ يوم مدة المسير بين جبل أميدوم وبلدة الفاشر .

وقد تميز المسير فى المسافة الأولى بأنه كان لا يحتاج الى حمل كميات
من المياه ، لأن المياه كانت موجودة بوفرة فى هذا الطريق ، بينما كانت البعثة
فى بقية المناطق الأخرى ، تحتاج الى حمل كميات كافية من المياه ، رغم

(٧٧) دفتر ١٩٢٢ أوامر كريمة ، وثيقة ١ ص ١ فى ٩ ربيع ثان ١٢٩٣
الموافق ١٨٧٦م .

Dosument, op. cit. No. 1296.

(٧٨)

سهولة الحصول عليها ، وذلك بحفر الآبار في تلك المناطق ، فالمياه الجوفية فيها كانت توجد بالقرب من السطح (٧٩) .

وكانت هذه البعثة قد حققت مهمتها ، وتأكدت من صلاحية استخدام هذا الطريق في نقل البريد من خلاله ، وربما يرجع السبب في اختياره الى أنه قصير ومستقيم ، ومن المرجح أيضا أن يكون السبب في اختياره راجعا الى أنه كان ولازال أقصر الطرق بالنسبة لغرب السودان . وكان قد تقرر أن يوضع بعض الجنود في بعض الأماكن الغير آمنة لحماية دوريات البريد بين غرب السودان ومصر .

ويعتبر هذا العمل من جانب مصر عملا حضاريا على جانب كبير من الأهمية لأن تقدم المواصلات في أى بلد من بلدان العالم ، يعنى في المقام الأول مدى ماوصلت اليه هذه البلدة من تقدم في مجال الزراعة والصناعة والتجارة والنقل .

الفصل العاشر

علاقات مصر بالحبشة

١ - أصول العلاقات :

كانت علاقة مصر بالحبشة طيبة طوال التاريخ ، واستمرت كذلك حتى بعد فتح محمد على للسودان ، وربما يرجع ذلك الى ظروفه العسكرية ، ومن المرجح أيضا أن يكون السبب في ذلك هو عدم مهاجمته للحبشة أو الاحتكاك بها وبناء على ذلك ظلت سياسة حسن الجوار قائمة بين البلدين ، حتى عصر عباس الأول ، ومن بعده محمد سعيد باشا .

لم يحاول كل من عباس الأول ، وسعيد باشا الاصطدام عسكريا بالحبشة ، سواء من قريب أو من بعيد ، وذلك يرجع الى انشغال كل منهما بشئون مصر الداخلية وإلى عدم محاولة كل منهما مد نفوذه الى مناطق جديدة من افريقيا . ولم يكن لعباس الأول أية مراسلات مع ملك الحبشة ، بينما حرص سعيد ، على استمرار المراسلات بينه وبين الملك الحبشي حتى لاتسوء العلاقات بينهما ، ويؤدي ذلك بالتالى الى دخولهما في معارك حربية ضارية ، لا يعلم مداها الا الله .

لم تقتصر العلاقة بين سعيد وملك الحبشة على تبادل الرسائل فحسب ، بل شملت أيضا تبادل الهدايا ، ففي عام ١٨٥٩ م ، أرسل سعيد باشا الى ملك الحبشة ، هدية كانت عبارة عن أربعة مدافع نحاسية ، عيار واحد ونصف بوصة ، بكافة لوازمها ومائة بندقية كبسول بروحين ، ومائة وستة وعشرون زراع من الحرير ، بالاضافة الى خيمنتين مبطنتين بالحرير (١) . ويبدو أن العلاقات المصرية الحبشية في هذه الفترة ظلت طيبة ومتسمة بحسن الجوار .

(١) دفتر ١٨٩٠ أوامر عربى ، وثيقة ٨٨ ص ٢٦ فى ٢١ محرم سنة ١٢٧٥ هـ الموافق ١٨٥٩ م .

ولما تولى اسماعيل باشا حكم مصر ، بدأت قواته تتوسع في افريقية حتى شمل نفوذه كل من بحر الفزال ودارفور ، والمديرية الاستوائية الى قرب البحيرات العظمى وسواحل البحر الاحمر الغربية وساحل خليج عدن ، ومقاطعة هرر ، وأخيرا امتد هذا النفوذ الى قسمايو ولكنه لم يستمر طويلا ، وبهذا انحصرت الحبشة داخل النفوذ المصرى ، من الشمال والشرق والغرب ، ولا غرابة اذا ما حاول اسماعيل مد فتوحاته الى داخل الحبشة نفسها ، وازاء هذا شعر الامبراطور الحبشى بالخطر المحدق الذي يحيط ببلاده من جميع الجهات ، ومنذ هذه اللحظة بدا الخلاف يدب بين الدولتين ، وخاصة عند ما احتل اسماعيل الاراضى المتاخمة لمصوع مثل سنهيت (٢) .

لقد مرت العلاقات المصرية الحبشية اثناء حكم اسماعيل بفترتين . الاولى منها تعرف بفترة السلم ، وتعرف الثانية بفترة الحرب ، وسوف نتحدث عن كل منهما على حدة .

اولا : فترة السلم :

اتسمت فترة السلم هذه ، بانها كانت طيبة وحسنة ويتضح لنا ذلك من خطاب ملك الحبشة الى اسماعيل الذى يقول فيه ما نصه :

« ابدأ بالتحية واهدك السلام وانى وشعبى بسلام بنعمة من الله ، وان صداقتك الثابتة في افكارى ، وقلبي لن يتزعزع الا بالموت ، ولا يخفى عليك انا ندين مع الاقباط بعقيدة واحدة ، وبما اننا ابناء كنيسة واحدة ، الا انك لم ترسل للحبشة مطرانها ، لذا نرغب في صدور امركم بتكليف غبطة رئيس الاساقفة بايفاد المطران ، كما اود ان يصلنى الرد مع مبعوثى الراس بىرو لى عودته ، فبمجرد تمهيد الطريق بين مصر والحبشة سأرسل وفدا من قبلى لاستقبال المطران » (٣) .

-
- (٢) د . مكى شبكية : تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان)
في القرن ١٩ . المصدر السابق ص ٥٤٢ .
(٣) وثيقة ٦ ملف ٢ دوسيه ٥ في ١٥ مايو سنة ١٨٦٧ م .

واضح من هذا الخطاب مدى ما كانت عليه علاقة مصر بالحبشة من حسن الجوار والتعاون المستمر ، سواء كان ذلك في مجال التعاون الدينى ، او في تنشيط حركة التجارة والبريد بين البلدين ، ولكن لم يستمر هذا الهدوء السلمى بين البلدين مدة طويلة ، بل نجده بعد وقت من الزمن يتغير الى الاسوأ ، واصبحت العلاقة بين البلدين ، يشوبها شئ من التوتر وعدم الاستقرار ، وذلك يرجع الى الاغارات التى كان يقوم بها الاحباش على حدود السودان الشرقى ، مما اضطر اسماعيل ، ان يقرر انشاء عدد من النقاط الحصينة على الحدود بين البلدين ، وقد بدأ بانشاء أول نقطة في منطقة كوفيت وذلك لأنها تتميز بالمناخ المعتدل ، وبالمياه الوفيرة ، وبالموقع الممتاز (٤) .

لم تقف هجمات الاحباش عند هذا الحد ، بل مدوا غاراتهم الى اماكن عديدة من بلاد السودان الشرقى ، ففى عام ١٨٧٢ اغارت جماعة من اشياء الحبشة على قبائل البازات والباريات القاطنة شرق السودان وسلبوا ونهبوا كل ما وقع تحت ايديهم من مواشى واغنام ، بل وأسروا من السكان حوالى ٦٠٠ شخص (٥) وفى عام ١٨٧٤ اغاروا أيضا على اقليم التاكة ، وقتلوا بعض الجنود المصريين ، الى جانب قتلهم لبعض الوطنيين (٦) فاضطر الخديو ازاء هذا الموقف المتفجر على الحدود بين البلدين أن يرسل قوة حربية ، تحت قيادة آدم بك ، لى تمسك فى القلايات وذلك لحماية حدود الحكمдарية من هذه الهجمات المتكررة (٧) .

(٤) دفتر ٥٥٨ ص ٢٩ وثيقة ١٠ ، فى ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ هـ الموافق ١٨٦٦ م .

(٥) مكتبة ١٨٥٩ — وثيقة ٦٣ فى ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ١٨٧١ م .

(٦) دفتر ١٨٦٤ وثيقة ٦ ص ٩٨ فى ٢٩ صفر سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

(٧) دفتر ١٨٦٤ وثيقة ٤٢ ص ٨١ فى ٦ محرم سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

ولكن على الرغم من كل ذلك ، فان اسماعيل كان حريصا كل الحرص على استمرار علاقة حسن الجوار بينه وبين ملك الحبشة وذلك لسببين أولهما ان المعارك الحربية سوف تعطل مشروعاته التوسعية والعمرائية في أفريقيا ، وثانيهما انها سوف تعود على البلدين بالدمار والخراب ، ومن هذا المنطلق ، رغب اسماعيل ، في تحسين علاقته مع ملك الحبشة ، وعلى اثر ذلك قرر ان يرسل له منزجر باشا ، وذلك لتصفية الخلافات الموجودة بينهما ولكن منزجر باشا كان قد افهم الخديو بأن ملك الحبشة ، سوف لا يستجيب لتحسين العلاقات بينه وبين مصر ، وذلك لان بعض الدول الأوروبية (بريطانيا) كانت تحرضه على مهاجمة حدود مصر ، فاشتتت اسماعيل بوجهة نظر منزجر ، وأخذ في تحصين حدوده مع الحبشة ، وذلك بارسال ٤ بلوكات من الاورطة الثالثة لطاردة الاحباش الذين يفرون على حدود السودان الشرقى (٨) .

يفهم من هذا ان بريطانيا كانت تعمل على توتر العلاقات بين مصر والحبشة ، في الوقت الذي كانت تدعو فيه اسماعيل أن يعمل بكل جهده على منع تجارة الرقيق في أفريقيا ، اى انها كانت غير جادة في دعوتها الخاصة بالقضاء على تجارة الرقيق ، بل كان هدفها كما هو واضح العمل على زيادة التوتر في أفريقيا ، حتى تجد لها مبررا آخر يساعد على التدخل في الشؤون الأفريقية ، وهذا ما كانت تصبو اليه ، ويبدو ان الخديو اسماعيل كان على علم بحقيقة موقفها ، لانه طلب من حكمدار السودان ، أن يقوم بشراء العبيد من الجلالة ، بعيدا عن أعين غردون باشا ، بل وطلب منه أيضا ان يبتعد عن المناطق التي يتواجد بها غردون باشا .

بعد هذا العرض يمكن القول بأن علاقات السلم التي كانت سائدة بين مصر والحبشة منذ زمن بعيد ، قد تدهورت الى حد يدعو الى القلق ، وعدم الارتياح ، وبدات تظهر في الافق علاقات أخرى يشوبها الطابع الحربي .

(٨) دفتر ٢٥ عابدين ص ١٢١ في ١٢ محرم سنة ١٢٩٠ هـ الموافق

١٨٧٢ م .

ثانياً - الفترة غير السلمية :

الى جانب الاسباب السابقة ، التى اتت الى تدهور العلاقات بين مصر والحبشة ، كانت هناك اسباب اخرى ساعدت على تفاقم وتدهور العلاقات بين الدولتين وزادت من حدتها ، وكان من هذه الاسباب مطالبة ملك الحبشة ببناء على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كى يكون منفذاً لبلاده ، ولكن اسماعيل رفض هذا المطلب ، بحجة أن كل الساحل الغربى للبحر الأحمر ملكاً لمصر كما انه فى نفس الوقت تابع للسيادة العثمانية والدليل على ذلك واضح ، وخاصة عند ما ارادت بريطانيا ان ترسل حملة لمحاربة ملك الحبشة ، كى تخلص القنصل البريطانى ومن برفقته من السجون الحبشية ، طلبت الاذن من تركيا ، كى تسمح لقواتها بالمرور من منطقة الساحل الغربى للبحر الأحمر . ويعتبر هذا اعترافاً صريحاً من جانب بريطانيا بأن تركيا هى صاحبة السيادة على تلك الأقاليم الساحلية، وأشار اسماعيل الى أن دعوى الملك الحبشى فى السيادة على أى جزء من الساحل ، لا أساس لها من الصحة .

وازاء هذا ، لم يقف ملك الحبشة مكتوف الأيدى ، بل حاول من جانبه أن يستميل بريطانيا ، ولكن دون جدوى ، وذلك لسببين ، أولهما ان بريطانيا كانت مرتبطة مع تركيا بسياسة واحدة ، أى كان لكل منهما الحق فى تأييد الآخر ، فمثلاً كانت بريطانيا تؤيد تركيا ضد أى اعتداء يقع عليها من جانب روسيا ، وثانيهما ان بريطانيا كانت أيضاً مرتبطة بسياسة واحدة مع اسماعيل الذى أيدها فى موقفها من سياسة منع تجارة الرق فى افريقيا ، فى مقابل أن تعترف له بالسيطرة على السواحل الغربية للبحر الأحمر . (٩)

وفى مقابل هذا الموقف المتشدد من جانب اسماعيل رفض ملك الحبشة التنازل الى مصر ، عن الأراضى الجاورة لنهرى المارب والجاش ، اللذين اعتبرتهما مصر من ضمن الأراضى التابعة للسودان ، لذلك طالبت بضمهما

(٩) د . مكى شبكيه : المصدر السابق . ص ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

الى املكها ، ولكن ملك الحبشة ، لم يعترف بهذه الشرعية ، واصر على رفضه ، وعدم التنازل عن هذه الاقاليم ، زيادة على ذلك فانه ترك قبائله تقوم بالاغارة على الحدود المصرية في السودان .

ومن ناحية اخرى ، كان الخديو اسماعيل يعلم هذه الحقيقة ، ويعلم ايضا انه لابد من مجابهة الحبشة ، ولكنه قرر قبل أن يبدأ هجومه ان يقوم بانشاء عدد من التحصينات ، في كل من سواكن ومصوع ، وقد شملت هذه التحصينات ، القلاع والحصون ، وذلك بغرض حماية جنوده ، ففى سواكن انشئت طابية مربعة الشكل احيطت من الخارج بسور وسائر ترابى وخندق ، وقد بلغ عرض هذا الخندق مترين من أعلى ، وزودت كذلك ببرج ، يشتمل على ستة مزاغل ، وضع في اثنين منها مخفمين عياره بوصة ، وقد زودت كذلك بمحل لاقامة الجنود والأسلحة والذخيرة وقد بنى هذا المكان الذى خصص للجنود بالأحجار الشعبية والطين ، وكان من عيوبه انه بنى بدون نوافذ وقد بلغ عدد جنود هذه الطابية ٣٢ جنديا ، كانوا جميعا تحت رئاسة يوزباشى وملازم اول وملازم ثانى ، بالإضافة الى ١٧ جنديا من جنود الطوبجية الذين كانوا تحت رئاسة ضابط طوبجى ، وكان الغرض فيما يبدو من وجود هذه القوات ، هو حراسة مبنى المحافظة والقراتولات والدفاع عن السيادة المصرية في هذه البلاد . (١٠)

وفى مصوع انشئ عدد آخر من الطوابى ، منها طابية راس مضر ، التى كانت معدة لمحاربة السفن الحربية ، التى تحاول مهاجمة مصوع ، زيادة على ذلك فانها كانت تقوم باطلاق مدافعها فى المناسبات القومية ، مثل الأعياد والاحتفالات الرسمية (١١) . والى جانب هذه الطابية ، وجدت طابية طاولون ، التى كانت عبارة عن قلعتى أم كلوا وحرقيقو ، وتقعان على مسافة قريبة من مصوع ، والى جانبهم وجدت طابية جرار ، التى كانت

(١٠) محطة رقم ١١١ سواحل البحر الأحمر .

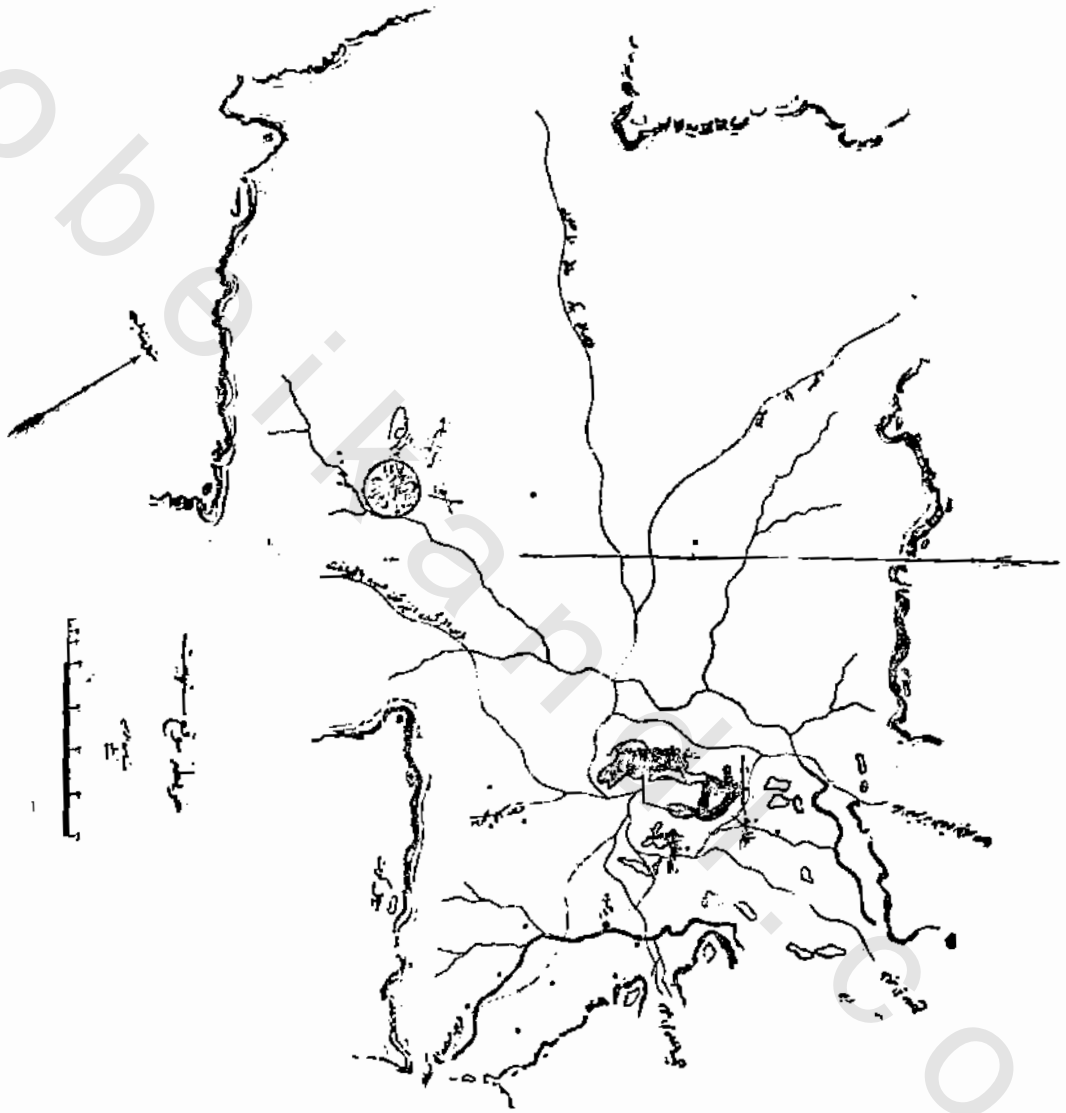
(١١) نفس المحطة .

خماسية الشكل ، وقد كانت مهمتها الدفاع عن جزيرة جرار (١٢) .
وانشئت أيضا طابية سنيهيت (١٣) في قمة جبل ، وعملت بها دروة من
الاحجار غير المنظمة ، وكانت هذه الطابية تضم اربعة أبراج مضلعة
الشكل فالاول منها كان له اربعة مزاغل ، والثانى كان له ثلاثة مزاغل ،
وكان لكل برج من الأبراج الباقية خمسة مزاغل ، وقد سورت من الخارج
بخندقين ، يبدأ الاول منهما من عند البرج الذى يقع فى الشمال الغربى ،
وينتهى بانقرب من البرج الواقع فى الجنوب الشرقى ، فكان لهذا الخندق
سائر رأسى من التراب بلغ ارتفاعه من الداخل ٢ متر ، ٣٠ سم ، وبلغ
ارتفاعه من الخارج حوالى متر ، ٨٠ سم ، وبلغ عرضه ٣ متر ، وأما
الخندق الثانى فكان يبعد عن الطابية بحوالى ٣٠ مترا وكان يحيطها من
جميع الجهات ، وبلغ ارتفاع ساتره من الداخل حوالى ٣ متر وبلغ ارتفاعه
من الخارج متر ، ٥٠ سم ، وكان قد وجد بجوار هذا الخندق صهريج
للمياه ، بلغت سعته ١٣٣ مترا مكعبا وقد تضمنت هذه الطابية أيضا
شونة للتعمينات ، وجبختين للذخيرة ، احدهما خاصة بالبيادة ، والثانية
خاصة بالطوبجية ، كما تضمنت مخزنا وعنبرا للجنود وكانت هذه الطابية
محاطة بسور بلغ ارتفاعه ٢ متر ، ٥٠ سم ، وكان هذا السور يضم بداخله
بيوت الضباط ، وشونة التعمينات ، وماكينه المرى ، والاسبتياليه وبعض
التوكولات ، وبئرا للمياه المخصص للشرب واستعمال الجنود ، وكانت طابية
سنيهيت من المواقع الحربية الجيدة ، التى يصعب الهجوم عليها ، لأنها
كانت تضم حوالى ٨٤٤ جندي ببيادة ، وكان على رأسهم سبعة من اليوزباشية
وسبعة من الملازمين الاول وثمانية من الملازمين الثانى ، وكانت تضم
ايضا ٨٢٠ جنديا من الطوبجية (١٤) وكانوا تحت رئاسة صاغقول اغاسى ،
واثنين من اليوزباشية واثنين من الملازمين اول ، وملازم ثان ، علاوة على

(١٢) دفتر ٣٩١٩ ص ١٧١ ، وثيقة ٧ فى ٨ صفر سنة ١٢٩٧ هـ
الموافق ١٨٨٠ م .

(١٣) انظر الخريطة رقم ٣ ، ٤ خلف صفحة ٢١١

(١٤) دفتر ٣٩١٩ ، ص ١٦٧ وثيقة ٧ فى ١٠ صفر سنة ١٢٩٧ هـ
الموافق ١٨٨٠ م .



صورة الخريطة رقم (٢)

وهي توضح منطقة سنهايت التي عسكرت فيها القوة المصرية عام ١٨٧٦م ،



صورة الخريطة رقم (٤) وتمثل طابية سنهيت وهى احدى القلاع الحصينة
التي انشأتها مصر فى مصوع عام ١٨٧٥م

ذلك فقد وجد بها ١٠٠ مائة جندي وصف ضابط ، يبدو انهم كانوا كاحتياط (١٥) .

وبعد أن انتهى الخديو اسماعيل انشاء هذه الاستحكامات قام بإرسال أول حملة عسكرية الى مصوع وقد قدر عددها بحوالى ٢٢٠٠ مقاتل ، وقد تمكنت هذه الحملة من احتلال اقليم الحماسين ، الواقع الى الجنوب من سنهايت (١٦) ، ومن بعدها توجهت الحملة الى جونديت (١٧) وبعد أن تمركزت القوات المصرية في أماكنها هناك ، أرسل قائدها مندوبيا من طرفه ، الى ملك الحبشة يطلب منه التنازل عن الأراضي المتنازع عليها ، حتى يمكن تجنب وقوع أية حرب بين الدولتين ، ولكن دون جدوى ، ولم يكد هذا المندوب يصل الى مقر القيادة ، الا وكانت القوات الحبشية تشن هجوما على القوات المصرية ، التي تمكنت من صد هذا الهجوم ، وقتل خمسة عشر جنديا من القوات الحبشية ، ولكن لم تكف القوات الحبشية بهذا الهجوم بل شنت هجوما شاملا ، على القوات المصرية المتمركزة في جونديت ، وتمكنت أثناء هذا الهجوم من محاصرة القوات المصرية في جونديت وإبادتها عن آخرها ، وساعد الأقباش في ذلك انهم تمكنوا من قطع طرق المواصلات التي تربط القوات المصرية بمراكز القيادة الخلفية وتمكنوا أيضا من منع وصول النجديات الى جونديت ولم ينج من الجنود المصريين من الموت الا عدد قليل جدا تمكنوا من الهرب .

ونتيجة لانتصار الأقباش طلبوا من أفراد الجيش المصرى الهاربين ، الاستسلام وتسليم ما معهم من أسلحة ولكنهم رفضوا ذلك وفي هذا الصدد يقول أحد الضباط المصريين الذى قدر الله له الحياة مانصه :

« أما بخصوص تسليم الأسلحة فلا يمكن تسليمها ما دمنا نحن أحياء » .

(١٥) نفس الدفتر والوثيقة .

(١٦) د . مكى شبكه : المصدر السابق ص ٥٤٤ .

(١٧) انظر تقرير موقعة جونديت بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة

المصرية في أفريقيا للمؤلف .

وقد اتجهت القوات المصرية المنسحبة الى قياخور ، خوفا على نفسها .
من مطاردة الاحباش لها وقد خسرت مصر في هذه المعركة الوحدات
العسكرية التالية : —

- أربعة عشر بلوكا من جنود السودان .
- سبعة بلوكات من عساكر ٢ جى أورطة .
- واحد بلوك من ١ جى أورطة .

والى جانب ذلك كله فقد قتل كل من الحكمدار والمحافظ والقائمقام ،
والسيو زيجى ، وأرنديوب وإراكيل بك ، وجميع بكباشية الطوبجية ،
وجى أورطة ، وجميع ضباط البلوكات ، زيادة على ذلك فان الحبشة
استولت على جميع الأسلحة التى كانت مع القوات المصرية ، التى اشتركت
فى هذه الموقعة ، بالإضافة الى ذلك فان الحبشة تمكنت من أسر ١٥ جنديا ،
كان من بينهم ، معاون ٢ جى أورطة ، وملازم الطوبجية ، وبلغت خسائر
العدو فى هذه الموقعة حوالى ١٥ ألف جندي (١٨) .

ولكن على الرغم مما بذلته القوات المصرية من مجهود فى هذه المعركة
ضد القوات الحبشية ، الا انها فشلت فى تحقيق سيطرتها على منابع نهر
المراب ، ويمكن تعليل ذلك فى النقاط التالية : —

— صعوبة المسير ، فمن المعروف أن الجنود ساروا على أرجلهم ،
وسط الخيران والتلال والأدغال ، وادى هذا بكل تأكيد الى اجهادهم ،
لخاصة وأنهم ساروا مسافة طويلة ، بينما حملت الأسلحة والمهمات والتعيينات
على ظهور الدواب .

— بعد المسافة بين القوات الأمامية فى جونديت ، وبين القوات الخلفية
الموجودة فى قياخور على ساحل البحر الأحمر ، فقد ادى ذلك الى تضارب
الأنباء عن سير المعركة ، وعدم معرفة الحقائق الصحيحة . (١٩)

(١٨) دفتر ٣٤ عابدين ، وارد تلفراف رقم ٢٢٥ فى ٧ شوال ١٢٩٢
الموافق ١٨٧٥ م .

(١٩) نفس الدفتر والوثيقة

— عدم وجود خطة دقيقة ، تتضمن الخطوات التكتيكية التى يجب أن تسير على نهجها الحملة ، فيبدو أن الحملة سارت الى مكان الموقعة دون أسس مدروسة ، والدليل على ذلك أن احدى الخرائط الخاصة بهذه الموقعة ، رسمت عن طريق سماع اقوال أحد الضباط ، الذين اشتركوا فى هذه الموقعة ، وكان من الأفضل أن ترسم فى نفس مكان الموقعة .

— وكان من نتيجة هذه المعركة ، أن انخفضت الروح المعنوية لدى الجنود المصريين ، بينما ارتفعت بين جنود الحبشة ، وخاصة عند ما احتفظ ملك الحبشة برؤوس بعض الضباط القتلى وخاصة الأجانب منهم (٢٠) . وأدى ذلك بالتالى الى انخفاض الروح المعنوية لسكان سواكن ومصوع ، وقد دفع ذلك عمر رشدى الى أن يلتمس من القيادة المصرية أن تسمح بوجود أحد الوابورات الحكومية فى ميناء مصوع ، وذلك لاطمئنان الاهالى على مدى قوة الحكومة المصرية ، واخفاء روح الهزيمة (٢١) . وقد رسمت خريطتين لموقعة جونديت نشرت احداها خلف هذه الصفحة *

وقبل أن تنتهى هذه المعركة كان الخديو قد أرسل حملة أخرى فى نفس الشهر وعلى وجه التحديد يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥م ، الى منطقة أوسه ، لكى تستولى على منطقة نهر الجاش ، حيث كانت هذه المنطقة من المناطق المتنازع عليها وتكونت هذه الحملة من : —

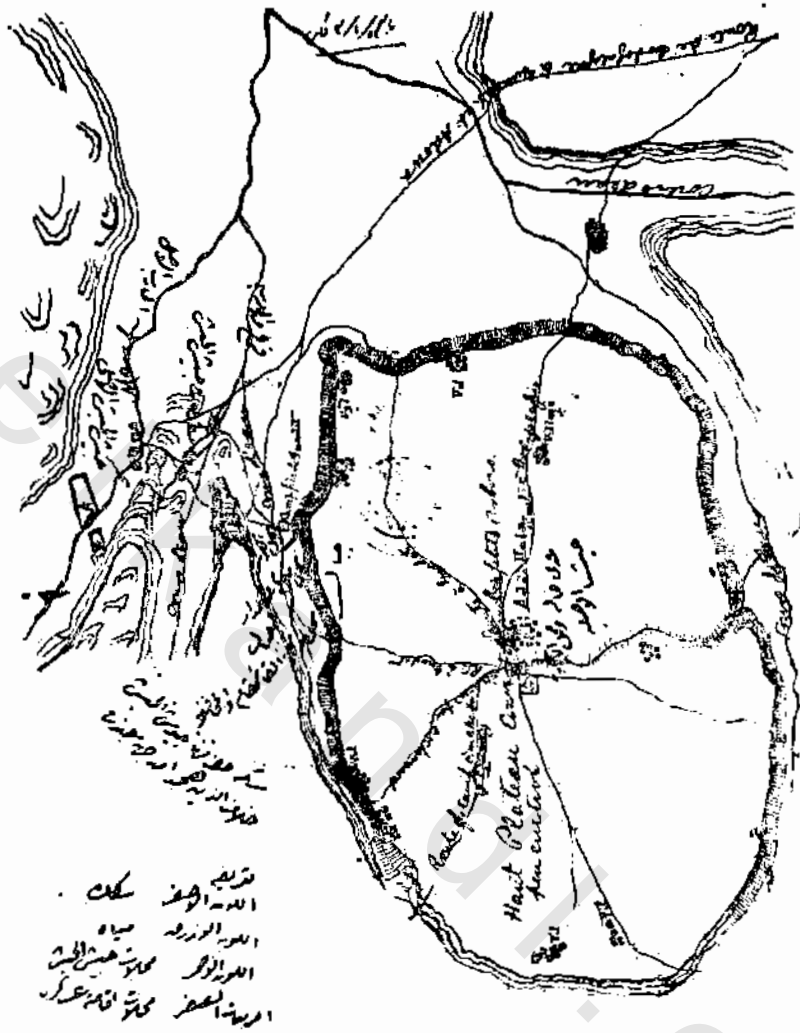
— ٤ جى بلوك ، كانوا تحت قيادة اسماعيل افندى معاون المأمورية .

— بطارية طوبجية ، مركبة من مدفعين جبلى عيار ٤ وصاروخين حربى من نفس العيار المذكور ، وكانت تحت قيادة الملازم اول يوسف جاهين والذي كان بصحبته ، كاتب الحملة ، والاركان حرب والصيدلى .

(٢٠) دفتر ٢٥ عابدين صادر تليفراف رقم ٤٥٥ ص ٦٧ فى غاية شوال سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

(٢١) مجفظة ١٠٩ وثيقة ٤٧٢٢ فى غاية شوال سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

* انظر خريطة موقعة جونديت خلف صفحة ٢١٦ وانظر الخريطة الاخرى فى كتاب جريد مصر الكشفية .



صورة الخريطة رقم (٥)

وتمثل ميدان موقعة جونديت التي وقعت بين القوات المصرية والحشية

حاج ١٨٧٥ م .

— ٢ جى بيادة سودان ، وكانت تحت رئاسة دياب آغا يوزباشى ، وكانت هذه القوة قد زودت بكبة من الفخرة والمهمات والبقسمات .

وبعد أن اكتمل اعداد هذه الحملة ، بدأت المسير فى عام ١٨٧٥ من ميناء تاجوره الى ميناء دالوا ، الذى يقع على نفس الشاطئ الغربى للبحر الاحمر ، وبعد وصولها الى هذا الميناء الآخر ، نزلت الحملة على انشاطىء . وفى دالوا تدارس القادة ، كيفية الوصول الى اوسه ، وقد اتفقوا على الآتى : —

— ضرورة استخدام الطريق المهد الذى يوصل الى اوسه .

— ضرورة تقسيم جمال الحملة المعدة لنقل الامتعة الى ثلاثة أقسام يخصص القسم الاول منها فى حمل الاشياء الثقيلة ، مثل المدافع والجبخانه ، ويخصص القسم الثانى ، فى حمل البقسماط ، والثالث فى حمل امتعة العساكر والضباط والملحقين مثل الحكيم والكاتب والمعاون والمهندس .

وبعد أن انتهت اجراءات الاستعدادات ، بدأت الحملة فى المسير ، وكان قد تقرر أن يسير فى الامام ١٥ جنديا ، تحت رئاسة احد الضباط ومعهم ستة من الأدلاء المرسلين من قبل شيخ بلدة تاجورة ، وذلك لاستكشاف الطريق ، وقد سارت هذه المجموعة على مسافة ٢٠٠ مترا ، من مقدمة الجيش ، ومن بعدهم سار خمسة عساكر تحت رئاسة اركان الحرب واحدا البوزباشىة ، وكانوا ايضا على مسافة ٢٠٠ مترا من المجموعة الاولى ومن خلف هذه المجموعة وعلى مسافة أربعة أمتار سار ضابط الطوبجية وعساكره ، ومن خلفهم تقدمت الجمال التى تحمل جبخانه البيادة والخزينة ، والبقسمات والمهمات وعفشى الاغوات والسيدات والاولاد ، وعين على يمين الحملة ، ومن مقدمتها الى نهايتها ، ١ جى بلوك مع عدد من ضباطه ، بحيث كان احداها فى المقدمة ، وكان الثانى فى الوسط ، والثالث فى المؤخرة ، وعلى يسار الحملة ، كان يسير ٣ جى بلوك ، الذى كان موازيا الى ١ جى بلوك ، وفى المؤخرة وعلى بعد ١٠٠ متر وجد ملازم على رأس ٢٠ عسكرى ، ومعه بروجى ودليل ، وذلك للمحافظة على من يتأخر من أفراد الحملة ، وكانت دواب هذه الحملة تسير بين قوة الحراسة الموجودة على الجانبين

حتى يسهل الدفاع والمحافظة عليها ، عند ما تتعرض لاي هجوم مفاجيء ، كما اتفق أيضا ان يكون السير لمدة ٤ ساعات في أول النهار ، بعدها تأخذ الحملة راحة . وهكذا استمرت الحملة في المسير حتى وصلت الى شاطئ بحيرة اوسه ، بعد ان كانت قد استهلكت كل احتياطي التموين ، الذي كانت تحمله معها فأدى ذلك بالتالى الى تعرض الجنود الى الجوع الشديد والمعش ، وكان من نتيجة ذلك ان اضطر منزجر الى ذبح البعض من جمال الحملة ، وتوزيع لحمها على الجنود ، وكان قائد الحملة قد قابل الشيخ محمد ولد لعيطه شيخ عربان تلك المنطقة ، والذي وعد منزجر بأنه سوف يقدم له كل ما يطلبه من أجل الحملة وبالفعل طلب منه منزجر ان يزود الحملة بعدد من الابقار والاغنام ، وكان منزجر قد دفع له جزءا من اثمانها مقدما ، وتعهد بدفع الجزء الباقي بعد الاستلام ، ولكن هذا الشيخ لم يف بوعده ، بل اخذ يماطل يوما بعد يوم ، لى تتعرض الحملة لمخاطر أشد صعوبة ، وحتى يتمكن هو من تنفيذ مخططه ، الذى يرمى الى القضاء على الحملة ، ولم يكف هذا الشيخ بهذه المماطلة بل عمل على تضليل قائدها فقد اقترح عليه ان ينقل القوات الى مكان آخر غير المكان الذى كان منزجر قد اختاره ، وقد وافق القائد على هذه الفكرة ، ونقل قواته الى المكان الجديد الذى كان من أقوى الأسباب التى أدت الى هزيمة الحملة .

لم تقف مؤامرات هذا الشيخ عند هذا الحد ، بل اوعز الى رجال قبائله بان يهاجموا مؤخرة الحملة ، وقد تمكنوا من قتل أربعة من الجنود وجرح خمسة آخرين ولكن لما علم منزجر بذلك ، أرسل أحد الضباط وبصحبه بعض الجنود الى مكان الحادث ، وتمكنوا من مطاردة الاعداء وتخليص مؤخرة الحملة ، ولكنهم لم يمهلوا الحملة ان تتنفس الصعداء ، فقد هاجموا جنودها أثناء الليل ، وأخذوهم على حين غرة ، ودارت اثناء الليل بينهم وبين الجنود معركة استمرت حتى مطلع الفجر ، وكان النصر فيها حليف الاحباش ، فقد تمكنوا من القضاء على معظم رجال الحملة ، بها فيهم قائدها ، وعدد كبير من ضباطها ، وقتل من الاحباش حوالى ٥٦٠٠ شخص ، وكان الجنود الذين تبقوا من أفراد الحملة ، قد قرروا العودة مرة ثانية الى تاجورة ، واثناء عودتهم لاقوا الكثير من الصعاب من قبل

الأحباش ، فكانوا يطاردونهم بصفة مستمرة ليلا ونهارا ، وكانوا ينامون أثناء الليل وهم على شكل دائرة حتى لا يتمكن الأعداء من مهاجمتهم ، وكان من المتبع عندما يعجز أحدهم عن المسير ، يتركوه في الطريق كي لا يتعطلون بسببه عن مواصلة المسير ، وخاصة بعد أن فقدوا كل شيء ، وكانوا قد نجحوا في الوصول الى تاجورة ، وهناك صرف لكل منهم مبلغ من المال .

وكان أحد ضباط هذه الحملة قد كتب تقريرا شاملا ضمنه خط سير الحملة ، والمشاكل التي واجهتها ، والتي أدت الى هذه النتيجة السيئة،ويمكن تحليل أسباب هذه الهزيمة الى عدة عوامل نجملها على النحو التالي : —

— عدم تزويد الحملة بالكمية الكافية من المؤن ، التي يرجع السبب فيها الى اهمال قائدها ، الذي من المحتمل أن يكون قد اعتمد على تزويد الحملة بما ينقصها من مؤن ، من البلاد التي تمر من خلالها .

— عدم وضع خطة مدروسة ، تسير الحملة على نهجها ، والدليل على ذلك أن الحملة ، عندما وصلت الى بحيرة الأوسه ، لم يستطع قائدها النجاح في اختيار الموقع الملائم لها ، بل اعتمد في ذلك على الشيخ محمد ولد لعيطه ، الذي كان من أهم الأسباب الأساسية في هزيمة هذه الحملة .

عدم تزويد الحملة بالأسلحة الكافية التي تمكنها من مقاومة الأعداء والدليل على ذلك أنها لم تتمكن من مقاومة البدو الذين استطاعوا بأسلحتهم البدائية ، مقاومتها والتصدي لها ، ومنعها من تحقيق أهدافها .

وكان لهزيمة هذه الحملة ، والحملة السابقة (حملة جونديت) اثرهما السيئ على الخديو اسماعيل ، الذي قرر ضرورة الانتقام من الحبشة ، والأخذ بالثأر وذلك بإرسال حملة أخرى هي حملة مصوع .

وأما الحملة الثالثة فكان على رأسها عدد كبير من الضباط المصريين والأجانب الذين كانوا جميعا تحت رئاسة الأمير حسن ثاني أبناء الخديو اسماعيل ، ويبدو أن تعيين الأمير حسن قائدا عاما لهذه القوات كان بمثابة العمل على رفع الروح المعنوية لدى الجنود والضباط على السواء . وكان من اضباط الأجانب الجنرال لورنج الذي كان رئيسا لأركان

الحرب ، والميرالواء فيلد field والميرالواء ديفيش Deviech والضابط
ماكليان MACLEAN والبكباشى لوش Loesh ولامسون Lamson
والطبيب ولسون Wilson واليوزباشى بورتر Portor والضابط
ارجنس Irgens وغيرهم وكان من الضباط المصريين كل من راتب باشا
الذى كان يشغل وظيفة سردار الجيش المصرى فى أفريقيا ، وعلى حلمى
وابراهيم افندى واحمد راتب افندى واحمد عزمى ، وعبد الرحمن حمدى ،
وعبد العال حلمى ، وخسرو عزمى ، وعبد اللطيف افندى ، ومحمد فؤاد ،
ومحمد رافت ، وحسين فهمى ، ورجب صادق ، ومصطفى افندى ، ومحمد
شاكر ، واحمد عربى والطبيب حسن حسنى ومحمد على بك (٢٢) .

وقد بلغت قوة هذه الحملة عشرة أوط من عساكر الببابة والسوارى ،
وثلاثة بطاريات من الطوبجية ، بالاضافة الى تزويدها بعدد من الصواريخ
'نحرية' ، والى جانب هذه القوة المرسله الى مصوع ، كانت هناك قوات
حربية اخرى ، فى كل من سواكن ومصوع (٢٣) .

وزودت هذه القوة بالمؤن والمهمات والنخائر والدواب من ابل وخيول
وبغال ، وذلك لاستخدامها فى نقل الامتعة والاسلحة ، وقد بلغ عدد هذه
الدواب ٢٣١٩ دابة . وقد تم نقل هذه القوة بما معها من اسلحة وامتعة
ودواب ، بالسفن المصرية التى كانت تعمل فى البحر الاحمر من السويس
حتى باب المندب .

— وبعد وصول هذه القوة الى سواكن ومصوع وزعت المهام القتالية
على السادة الضباط الآتى أسمائهم بعد : —

— عثمان بك رفقى قائدا للواء السفرية الأولى .

— راشد راغب قائدا للواء السفرية الثانية .

Report du Ratip Paeha.

(٢٢)

(٢٣) دفتر ٢٥ عابدين صادر تلفراف رقم ٤٢٣ فى ٢٧ شوال ١٢٩٢ هـ

الموافق ١٨٧٥ م .

- عثمان بك غالب ميرالاي الآلاى الأول للواء السفرية الاولى .
- محمد جبر بك ميرالاي الآلاى الأول للواء السفرية الثانى .
- عثمان نجيب بك ميرالاي الآلاى الثانى من لواء السفرية الثانى
- اسماعيل صبرى افندى بكباشى بطارية المدفعية الاولى والثانية .
- راشد افندى بكباشى اورطة الفرسان الاولى والثانية .
- مصطفى افندى بكباشى اورطة الفرسان الثانية .
- محمد شاكر افندى بكباشى اورطة الفرسان الثالثة .
- احمد عرابى بك مأمور الحملة .
- حسن حسنى بك ناظر المستشفى العسكرى .
- محمد على بك مفتش الصحة .
- خورشيد غالب بك اميرالاي الآلاى الثانى ولواء السفرية الاولى (٢٤) .

وقد تمركز هؤلاء بقواتهم فى كل من حطلمو وحرقيتو ، وجرار ، وبعرزده وعدرسة وقياخور وقرع ، وقد وضعت فى موقع حطلمو بطارتان من المدفعية وفى موقع جرار وضع بلوكان من المشاة . وفى جزيرة مصوع وضعت اورطتان من الفرسان ووزعت القوات الأخرى على باقى المواقع الاستراتيجية الهامة . وقد زود كل جندى من جنود الحملة بالأصناف التالية : —

- بندقية رامنتون بالسونكى .
- شنطة ذخيرة بها ٢٠ طلقة .
- شنطة جراية بها بقسماط يكفى لمدة خمسة ايام بالاضمانه الى تزويده بـ ١٠٠ طلقة احتياط .
- عباءة صوف .
- معطف (كبود صوف) .

وزود السادة الضباط بالأشياء التالية بعد : —

— ١٠٠ رطل من الأمتعة بما في ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط وذلك لرتبة الميرالاي .

— ١٠٠ رطل من الأمتعة بما في ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط لرتبة القائمقام .

— ٩٠ رطل من الأمتعة بما في ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط لرتبة البكباشي .

— ٧٥ رطل من الأمتعة بما في ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط لرتبة المعاون .

— ٧٥ رطل من الأمتعة بما في ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط لرتبة اليوزباشي .

— ٦٠ رطل من الأمتعة بما في ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط لرتبة الملازم .

وبعد أن استقرت هذه القوات في مواقعها ، بدأت في التقدم لاحتلال المواقع الاستراتيجية الهامة ، وكان من هذه المواقع موقع بعمرزه ، فهذا الموقع كان يتميز بأن له ثلاثة طرق يصل الأول الى أسمره ، والثاني الى مصوع ، والثالث الى عدرسه ، كما يتميز بوجود عدد من المرتفعات التي يمكن احتلالها لمراقبة تحركات العدو ، زيادة على ذلك فانه غنى بالحشائش والمياه اللازمة لدواب الحملة ، كما يتميز بقرية من مواقع العدو ، وكان من المعتاد قبل انتقال القوات من مكان لآخر ، أن تهبط لها الطرق ، وذلك بقطع الأشجار ، وإزاحة الأحجار منها ، وقد خصص لهذا الغرض ، مجموعة من الجنود كانت تحت رئاسة ضابط . وقد زودت هذه المجموعة بالبط والقزم ، والكواريك والمناشير ، علاوة على حمل جنود هذه المجموعة لأسلحتهم .

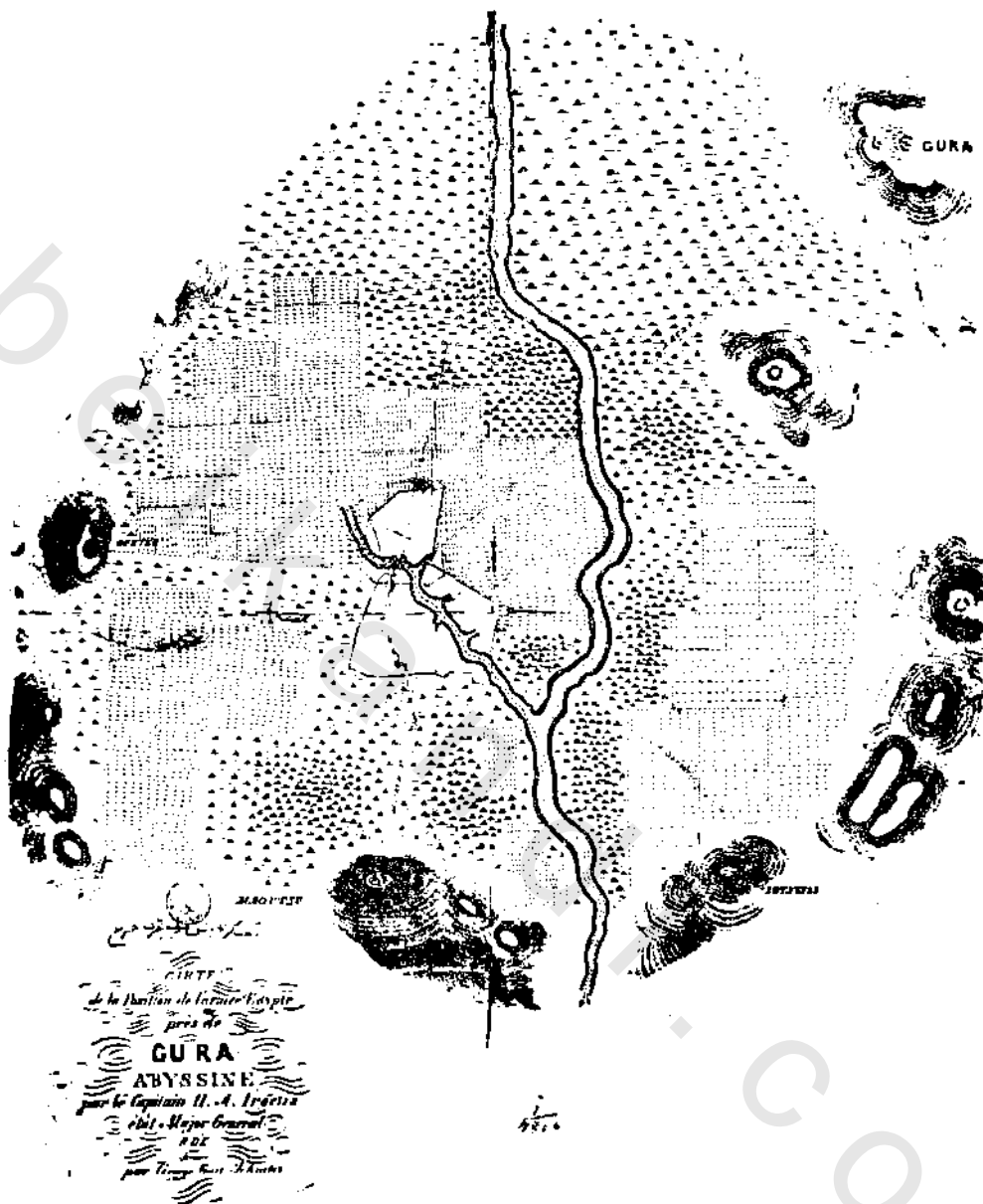
ومن الأماكن الهامة التي انتقلت اليها القوات بعد بعمرزه هي منطقة عدرسه،التي تتميز بعدم صلاحيتها من الناحية العسكرية كموقع استراتيجي وذلك لأنها محاطة بالجبال من جميع الجهات رغم توفر المياه فيها ، لذلك

انتقلت القوات بعد ذلك الى موقع آخر هو قياخور ، وكان هذا الموقع لا يصلح من الناحية العسكرية ، مع أن الوصول اليه كان سهلا وميسورا (٢٥) ، ومن هذا الموقع الآخر انتقلت القوات الى قرع (٢٦) ، وفي هذا الموقع عسكر الجنود فوق الروابي العالية ، وقام سكان القبائل في قرع ، بتقديم غروض الطاعة والولاء الى سردار الجيش المصري ، وقد تميز هذا الموقع بوفرة مياهه ، وبصلاحيته من الناحية العسكرية ، علاوة على ذلك فإنه كان يتسع لحوالى ٥٠ ألف جندي

وبعد أن استقرت القوات المصرية في قرع ، حذرت القيادة المصرية الوطنيين من التعاون مع الملك يوحنا ، وقد تم ذلك عن طريق إرسال القسيس ديفلو ، الذي كان تسييسا لتلك المنطقة ، وكان بصحبته محمد آدم ، وحاكم قرع ، فذهب الجميع الى سوق قرع ، وهناك أمر القسيس بقرع الطبول والفتارات ، وعلى الفور تجمع الناس ، الذين بلغ عددهم زهاء ٨٠٠ شخصا ، كانوا من المسلمين والمسيحيين ، وعندئذ قال القسيس في جموع الناس ما نصه :

« ان الجيش المصري قدم الى محاربة الملك يوحنا وذلك لأخذ الثار ، والانتقام منه ، بسبب المعركة السابقة (معركة جونديت) فمن لزم الحياد سواء كان مسلما أو مسيحيا ، فلا عدوان عليه ولا ظلم يحيق به ، وأما من سولت له نفسه ، الاشتراك في الحرب في صف الملك ، فعليه يقع العدوان والجور ، فالحكومة المصرية والجيش المصري يتصفان بالعدل والانصاف ، فهما يشتريان كل ما يحتاجون اليه من السكان بالثمن نقدا ، ولا يضر أى فرد ، فعلى كل واحد منكم أن يقوم بأعماله بمنتهى الحرية ، ولا يخاف من أى شيء » .

(٢٥) دفتر ٤١ عابدين ، وارد تليفراف رقم ٩٩ ص ١٧ في ٢ رجب سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م
(٢٦) انظر الخرائط أرقام (٦) ، (٧) الخاصة بموقع قرع خلف
-صفحة ٢٢٤-



صورة الخريطة رقم (٧)

وتمثل تتركز القوات المصرية في قرع عام ١٨٧٦ م .

وفي نفس الوقت كان راتب باشا ، قد ذهب الى اقليم الحماسين ،
الذى دخل في حوزة الحكومة الخديوية منذ وقت قريب وفي هذا الصدد
يقول راتب باشا سردار الجيش المصرى ما نصه :

« ان الحاكم ولد دنكايل قد نال الشرف بالجوء الى الحكومة الخديوية .
التي تعامل عباد الله الذين يستظلون تحت جناحها ، معاملة الوالد الحنون
لابنائه » .

وفي تلك الاثناء كان ملك الحبشة ، يتابع تحركات الجيش المصرى من
موقع لآخر وذلك بواسطة جواسيسه ، فبجرد ان علم بدخول الجيش
المصرى قرع ، اتجه على رأس جيش كبير الى قياخور ، عندئذ أصدر لورنج
باشا رئيس الأركان الأمر الى راتب باشا ، بأن يخرج القوات من مواقعها
لكى تصد زحف جيش ملك الحبشة ، وفي هذا الصدد قال الكولونيل
لورنج ما نصه :

« لنبرز من المتاريس لكى نلقى العدو وننازله » ولكن راتب باشا ،
كان قد اعترض على ذلك بحجة أن هذا الاجراء سوف يعرض القوات المصرية
للخطر ، ولكن لورنج أصر على تنفيذ مطلبه بصفته المسئول عن قيادة هذه
الحملة ، بينما رأى راتب باشا أن تظل الجنود فى مواقعها ، وعند اقتراب
العدو منهم يقومون بمهاجمته . ودلل على رايه بأن خروجهم سوف يعرضهم
للهلاك ، وخاصة وأنهم سيحاربون العدو فى العراء ، وبالفعل وبعد خروج
الجنود من الخنادق ، منيو بالفشل والهزيمة رغم ما بذلوه من مقاومة
عنيفة (٢٧) . وقد بلغت الخسائر المصرية كما يقول التقرير ٢٠٠٠ الفى
قتيل ، بينما بلغت الخسائر الحبشية ما يقرب من ٣٥ الف بين قتيل وجريح ،
ومن المؤكد أن هذا الرقم صحيح ، لأن الجنود المصريين كانوا يستخدمون
أسلحة حديثة (رامتون) بينما كان العدو يستخدم أسلحة قديمة ، الى
جانب استخدامه للسيوف والحراب .

(٢٧) دفتر ٣٧ هابدين ، وارد تلغراف ، وثيقة ٢٦ فى ١٤ صفر
سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

لم تنته الحرب بين الجيشين عند هذا الحد ، بل شن الأقباش هجوما شاملا على مواقع الجيش المصرى فى قرع ، وقد تمكنوا من هزيمته هذه المرة ، وبلغت جملة خسائره : واحد معاون بيادة ، وثلاث ضباط ، ١٢ جنديا بينما بلغت خسائر العدو ٥ خمسة آلاف قتيل (٢٨) . وتعتبر هذه المعركة هى آخر المعارك التى خاضتها مصر مع الحبشة ، والتى وضعت حدا للنزاع بين الدولتين .

ويمكن تحليل هزيمة الجيش المصرى فى هذه الموقعة الى عدة عوامل منها سوء التخطيط، لهذه المعركة ، فمن الملاحظ أن القوات المصرية، كانت تنتقل من مكان لآخر دون دراسة مسبقة للموقع الجديد ، الذى تم اختياره . وسبب هذا بالتالى اجهاد هذه القوات مع بعثرة جهودها ، وتعرضها للخطر، زيادة على ذلك فان القادة لم يكونوا على وفاق وخاصة عند اتخاذ اية قرارات ، فالحرب تتطلب قيادة واعية وادراك عميق ، ورأى موحد حتى لاتتضارب الاوامر بين القادة . وقد ادى ذلك بالتالى الى ارباك الجنود ، وعدم تاديتهم للمهام الموكلة اليهم على الوجه الاكمل ، غفى معركة قرع مثلا، نجد ان لورنج رئيس الاركان قد اصدر امرا الى القوات المصرية المتحصنة فى مواقعها بالخروج من خنادقها والتصدي لجيش العدو ولكن راتب باشا اعترض على هذا الامر ، بحجة انه يجب الا تحارب القوات فى العراء ، فمن الافضل لها ان تحارب عدوها وهى متحصنة فى خنادقها ، حتى يتوفر لها الحماية والامن ولكن لورنج اصر على رايه ولم ياخذ بهذا الراى ووصل به الامر الى انه لم يمهل راتب باشا ، ان يحصن قواته فى منطقة قياخور (الموقع الجديد) القريب من قرع ، وادى هذا بالتالى الى هزيمة الجيش المصرى فى قياخور وقرع .

ومنها ايضا خفض الروح المعنوية لدى افراد الجيش المصرى وذلك بسبب هزائمهم السابقة امام الأقباش فبالطبع كان هؤلاء الجنود المصريون ينتابهم الخوف من مواجهة الأقباش خشية الهزيمة مرة أخرى .

ومنها كذلك ان القوات المصرية ، لاقت الكثير من الصعاب وخاصة ان افرادها كانوا يتقدمون سيرا على الاقدام ، وسط الغابات والادغال ،

والمستنقعات والسهول والوديان ، بالإضافة الى تعرضهم لقسوة المناخ ، الذى يتميز بشدة الحرارة وكثرة الرطوبة ، فهو لا يلائمهم ، لأنهم تعودوا الحياة فى مناخ معتدل ، زيادة على ذلك فانهم واجهوا مشكلة سوء التغذية ، ففى ظل هذه الظروف كان لا يمكن للجنود أن يحصلوا على ما يحتاجون اليه من الغذاء ، بل يبدو انهم عاشوا على ما يحملونه من البقسماط الجاف فقط وهو لا يسمن ولا يغنى من جوع .

ولكن على الرغم من كل هذه الصعاب ، وعلى الرغم من الهزائم التى لحقت بهم ، الا انهم بحق ضربوا المثل فى المقدرة على تحمل المشاق والصعاب فى كافة الظروف الصعبة .

لم تؤد هذه الحروب الى حل المشاكل الموجودة بين الدولتين ، وعجزا كل من الطرفين على فرض ارادته على الآخر ، ونتيجة لفشل القوات المسلحة فى تحقيق هدفها . اذن لم يبق امام كل من الطرفين سوى التفاوض ، كوسيلة للحصول على أقصى مايمكن الحصول عليه من الطرف الآخر .

وعلى اثر ذلك طلب ملك الحبشة من الأمير حسن نجل الخديو اسماعيل ، وقائد القوات المصرية فى مصوع المفاوضة بشأن الصلح، وأرسل له خطابا جاء فيه ما نصه :

« فالأمل أن أردتم المكاملة فى هذه (المفاوضة) اما ان ترسلوا لنا من تعتمدونه ، وتخبروننا به ، لنرسل من طرفنا من نعتده للمكاملة فيما فيه الإصلاح وعلى الله حسن النجاح ، ونأمل فى ارسال رد جوابنا هذا يوم تاريخه » (٢٩) وقد رد عليه راتب باشا بقوله :

« ان مولانا الخديو آسف جدا على وقوع الحرب بيننا ، وعلى تبدل الصداقة المستديمة بيننا بالعداوة ، وانى اذكركم بأن ولى نعمتنا لا يرضى أصلا عن سفك الدماء بدون سبب ، فقد أوغد قبلا أرندروب بك ، ليتحدث

(٢٩) دفتر ٣٧ عابدين وأرد تلغراف رقم ٤٥٨ فى ١٥ صفر سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

معكم ويعقد معكم معاهدة صداقة قوية ، ولكنكم لم تقبلوا عقد المعاهدة
نحدث ما حدث (٣٠) . »

وبعد تبادل الرسائل بين الدولتين : اتفقتا على أن يعين كل منهما مندوبا
يمثلها في مفاوضات السلام ، وكانت مصر قد عينت من طرفها البكباشي على
أفندي الروبي ، الذي توجه إلى الحبشة ليقوم بالتفاوض هناك نيابة عن
مصر . وهناك قابل ليكا بوكاس وري مندوب الحبشة ، الذي حضر معه إلى
مصر لبدء المفاوضات ، وبعد أن انتهت المفاوضات بين الدولتين اتفقتا
على الآتي :

— إعادة جميع الأسرى المصريين ، الذين أسروا في الحروب السابقة
مع الحبشة .

— الاتفاق على عقد معاهدة للتجارة والبريد بين البلدين بحيث تحصل
الحبشة بمقتضاها على نقل البريد والبضائع التجارية عبر الأقاليم
المصرية .

— إعادة الأسلحة التي استولت عليها القوات الحبشية أثناء المعارك ،
ولكن المندوب الحبشي اعترض على هذا البند ، ولم يوافق عليه بحجة أنه
من الصعب جمع هذه الأسلحة من أيدي الجنود ، لأنهم اعتبروا هذا
السلاح غنيمة لهم ، وقرروا أنه في حالة جمعه منهم ، فسوف يقومون بتدميره
وأضاف بأن الملك الحبشي : طلب منه أن يكون هذا السلاح الموجود لدى
الجنود الأحباش ، عبارة عن هدية من مصر للحبشة .

— تأجيل مسألة تحديد الحدود بين الدولتين إلى وقت آخر (٣١) .

(٣٠) دفتر ٢٨ عابدين ، صادر تلغراف تركي في ١٧ صفر سنة
١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

(٣١) محنظة ١٦٠ — عابدين ، في غرة ربيع أول سنة ١٢٩٣ هـ
الموافق سنة ١٨٧٦ م .

وبعد الانتهاء من هذه المفاوضات التي حدثت بين البلدين ، عرضت نتيجتها على الخديو اسماعيل ، الذي اعترض على عدم ارسال الحبشة للأسلحة التي غنمتها قواتها ، وذكر ان الهدوء لا يتأتى الا بتصفية جميع الخلافات بين البلدين ، وطلب من السردار راتب باشا ، أن ينقل الى ملك الحبشة ضرورة العمل من جانبه على ارجاع هذه الأسلحة ، وقام السردار بارسال خطاب الى ملك الحبشة جاء فيه ما نصه :

« ان جمع الأسلحة من أيدي العساكر ، أمر يسر جدا بالنسبة الى ملك ذى نبوذ واقتدار مثل الملك يوحنا ، غلو عرضنا على مولانا الخديو أن الملك يوحنا لم يستطع جمع هذه الأسلحة من أيدي عساكره ، لما صدق ذلك ، وبناء على ذلك ينتظر من الملك يوحنا قبل كل شيء رد جميع الأسلحة الموجودة لدى جيشه » (٣٢) .

ويبدو أن بنود هذا الاتفاق لم توضع موضع التنفيذ مما اضطر الدولتين الى عقد اتفاق آخر ، تلخصت بنوده في النقاط التالية : —

أولا — انتهاء حالة الحرب بين الطرفين ، بحيث لاتتوم مصر بمحاربة الحبشة ولاتقرم الحبشة بمحاربة مصر .

ثانيا — عودة الحدود بين مصر والحبشة ، الى ما كانت عليه من قبل وقوع الحرب بين الدولتين .

ثالثا — تنشيط حركة التجارة بين الدولتين ، سواء كان ذلك في الصادرات أو الواردات .

رابعا — على الحبشة ان تمنعوا عن جميع الاشخاص الذين فروا منها اثناء الحرب والتجأوا الى مصر .

خامسا — تتكفل الحكومة الخديوية ، بمنع عساكر ولد ميخائل (وهو من رعايا الحبشة) من مهاجمة الحدود الحبشية .

(٣٢) دفتر ٨ عابدين تليفراف رقم ١٣٧ في ٢ ربيع أول سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

سادسا — اذا رغب ملك الحبشة فى ارسال مندوب من طرفه الى مصوع للاقامة بها للاشراف على رعايا حكومته هناك فلا مانع من ذلك .

سابعا — اذا ارسلت الحبشة بوسنة ، او اى فرد من ابنائها الى 'ى جهة، او الى اى دولة، فيجب عدم التعرض له من جانب الحكومة الخديوية ، وكذلك اذا ارسلت مصر من طرفها مندوبا يحمل بوسنة الى اى جهة من جهات الحبشة ، فيجب عدم التعرض من جانب حكومة الحبشة ، كما لا يتعرض احد للبوسنة التى يحملها .

ثامنا — عدم السماح بهرور الاسلحة ، وسائر المهمات الحربية الى الحبشة ، باستثناء مرور قدر معين ، من هذه الاسلحة ولوازمها والتى تشتري لحساب الملك وتقدر كميتهما بحوالى ٥٠ رطلا من البارود ، ١٠ بنادق ، ٥٠٠٠ آلاف كبسولة ، واشترط كذلك أن يتم ذلك مرة واحدة فى العام .

تاسعا — السماح بالسفر لآى فرد من أبناء الحبشة الى 'ى جهة خارج بلاده ، كفرنسا وانجلترا مثلا ، مادام يقوم بدفع مصاريف نقله فى الوابورات المصرية التى يركبها . كما يجب عدم منع اى شخص يريد زيارة الحبشة (٣٣) .

من قراءة بنود هذا الاتفاق نجد أنه لم يذكر اى شىء عن اعادة الاسلحة التى كانت بحوزة الحبشة ، رغم تعدد بنود هذا الاتفاق ، فيبدو أن ملك الحبشة كان جادا فى تمسكه بها .

ولكن على الرغم مما جاء فى بنود الاتفاق الثانى ، الا أن مصر لم توافق عليه ، مما اضطر الدولتين الى عقد اتفاق ثالث بينهما ، وقد مثل مصر فى هذا الاتفاق ، غردون باشا ، وقد جاء فى بنوده الاآتى بعد :

اولا — ان جهة باغوص وجهة لنسج الجنوبية ، وحلحل والماريات تستمر فى حوزة الحكومة الخديوية ، وكذلك أميديب وما حولها .

(٣٣) دفتر ٤٦ عابدين ، وارد تليفراف ، رقم ٣٤ ص ٨ فى ٣١ مارس سنة ١٨٧٧م .

ثانياً — على الخديو المعظم ، أن يأذن ملك الحبشة بتمعين مندوب من طرفه لاقامته في مصوع ، بحيث يكون بمثابة تنصلا ممثلا لبلادته .

ثالثاً — يقوم الخديو اسماعيل ، بتمعين مطران الحبشة .

رابعاً — كل من يرغب من الاحباش في التوجه الى القدس الشريف ، يرخص له بالسفر الى هناك ، على شرط أن يحصل على موافقة حكومته ، وعلى أن تقوم مصر بمنحه كافة التسهيلات .

خامساً — يمنع تصدير الأسلحة والبارود الى اعداء الملك يوحنا .

سادساً — جميع العساكر المأسورين والموجودين بالحبشة يصير ارجاعهم الى مصر (٣٤) .

يبدو أن هذا الاتفاق لم يوضع موضع التنفيذ ، والدليل على ذلك أن غردون باشا كان قد ذهب الى الحبشة ، وذلك لمقابلة الملك يوحنا ، وهناك قال له الملك ما نصه :

« انه اذا كان القصد من هذه الزيارة المحبة معي (ملك الحبشة) فتعطى الى جهة القلايكة والقاش ، بالإضافة الى مليونين من الجنيهات المصرية ، وانه في حالة حصولي على مصوع وعلى مطران فانتي سوف اتنازل عن النقود ، كما يجوز لي أن اطلب دنقلة وسنار وبربر والخرطوم وبلاد النوبة ، وكذلك جهة هرر التي تتبعني من قبل » (٣٥) .

من المؤكد أن هذه الاتفاقيات لم تنجح ولم توضع موضع التنفيذ ، نظراً لوقوف ملك الحبشة المتشدد ، حيث وصل به الغرور الى أن يطالب في أحقية

(٣٤) دفتر ٥٢ عابدين وارد تلغراف صورة المكاتبه رقم ١٨ في ٦ محرم سنة ١٢٩٦ هـ الموافق ١٨٧٨ م .

(٣٥) دفتر ٥٤ عابدين ، وارد تلغراف رقم ٧١٧ في ١٩ القعدة سنة ١٢٩٦ الموافق ١٨٧٨ م .

بملكته لبربر وشندى ، والخرطوم وهى اقاليم سودانية ، لاصلة لها بالحبشة .
سواء كان ذلك فى الماضى القديم أو فى الحاضر ، ويمكن ارجاع هذه الفطرسية
الى انتصاراته فى الحروب السابقة التى وقعت بينه وبين مصر .

وقد استمر هذا الوضع الى ما هو عليه ، حتى عزل الخديو اسماعيل
من حكم مصر وعين بدلا منه ، الخديو توفيق ، وفى تلك الاثناء ارسل ملك
الحبشة ممثلا خاصا من طرفه الى القاهرة وذلك لمقابلة الخديو الجديد ،
حيث طلب منه ضرورة العمل على تعديل الحدود بين السودان والحبشة ،
بحيث يتضمن التعديل الجديد ، حصول الحبشة على ميناء مصوع والقرى
التابعة لها ، وتلعة البجه (٣٦) ولكن يبدو ان الخديو توفيق ، لم يوافقه على
مطالبة واستمر الوضع هكذا . حتى قيام الثورة المهدية ، وصدر الامر
بانسحاب الجيش المصرى من السودان ومن البلدان الافريقية الاخرى . ومن
هنا وجدت الحبشة الفرصة السانحة امامها لتحقيق ماكانت تصبو الى تحقيقه
فى الماضى .

ومن الجدير بالذكر ان تشير الى عدد القوات المصرية التى كانت متواجدة
فى ذلك الوقت فى البلدان السودانية خاصة والافريقية عامة ، فنلاحظ ان هذه
القوات كانت موزعة على هذه البلدان بنسب متباينة ، فكان حجمها يختلف من
بلد لآخرى ، فنجد مثلا ان عدد القوات المصرية التى كانت ترابط فى منطقة
بحر الغزال يبلغ ٤٠٠ جندي ، يبدو ان السبب فى ذلك يرجع الى اهمية
هذه المنطقة لانها كانت من المناطق المشهورة بتجارة الرقيق ، وثانيا انها كانت
وكر لاعداء الحكمدارية من امثال الزبير باشا رحمه .

ويلى اقليم بحر الغزال فى الاهمية اقليم هرر الذى بلغ عدد قواته
العسكرية ٢٧٥٤ جنديا ، فهذا الاقليم ملاصق للحبشة التى كانت تعمل بكل
جهدها على القضاء على النفوذ المصرى فى افريقيا الشرقية ، وكانت مصر
تعلم هذه الحقيقة ، لذلك نجدها تزيد من تواجدتها العسكرية فى اقليم هرر .

Document. N. 336 Cairo, Septembre, 6, 1879. Agency and (٣٦)
consulate general of U.S.A. in Egypt.

ومن بعد هرر يأتى اقليم كردفان ودارفور ، فيبلغ عدد قوات كردفان ١٩٥٠ جنديا ويبلغ عدد جنود الفاشر ١٥٠٠ جندي وداره والكلكل ٢٠٠٠ جندي ، والسبب في ذلك يرجع الى أن منطقة غرب السودان كانت قد شهدت معركتين ، أولهما كانت عام ١٨٢٠م بين قوات البك الدفتردار وقوات سلطان دارفور من ناحية أخرى ، وكانت المعركة الثانية عندما قامت مصر بضم اقليم دارفور للسيادة المصرية .

ويلى اقليم غرب السودان في الأهمية اقليم خط الاستواء ، فبلغ عدد قواته العسكرية ١٧٧٣ جنديا ، وذلك لاتساع مساحته ، ومن ناحية أخرى أنه كان مركزا لارسال الحملات الكشفية الى المناطق المجاورة له ، بالإضافة الى مقاومة تجارة الرقيق في هذه البلاد .

ومن بعد خط الاستواء يأتى اقليم او مديرية الخرطوم التى يبلغ عدد قواتها ١٥٥٦ جنديا، وربما سبب ذلك يرجع الى أن الخرطوم كانت عاصمة للبلاد السودانية ، ومن ناحية أخرى كان يوجد بها مركز القيادة وثكنات الجيش ، فعلى بذلك تعتبر مستودعا للجند ، أى منها تخرج الجنود لتوزع على بأتى المديرية .

ويلى الخرطوم في الأهمية أيضا مديرية الناقة التى يبلغ عدد قواتها العسكرية ١٤١٨ جنديا ، ويبدو أن السبب في وجود هذه القوة العسكرية الضخمة ، يرجع الى تمرد جنود اللواء الرابع عام ١٨٦٥م والذى نجم عنه ثورة كادت أن تقضى على النفوذ المصرى في السودان ، ويمكن مراجعة التقرير الخاص بهوقعة الناقة في كتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية في افريقيا في القرن التاسع عشر ، في الفصل الخاص بالمعارك الحربية للبلاد .

وفيما عدا ذلك فان عدد القوات المصرية العسكرية في البلدان الاخرى ، كان قليلا ، فيفهم من ذلك أن توزيع القوات المصرية كان يراعى فيه أهمية المديرية او البلدة ، بمعنى أن المديرية التى تكون واسعة المساحة ، تزود بعدد كبير من الجند، كما توضح عاليه ، ويمكن مراجعة البيان الخاص بذلك، خلف هذه الصفحة ٢٣٥ .

يوميته

عن « العسكرية الموجودة بجهات السودان والسواحل » وذلك عن المعلوم
من اليوميات الواردة لقلم عسكريه لغاية شهر يونيه سنة ١٨٧٩

عسكرية جهادية	عسكرية باشبوزق	يكون عسكرية	اسماء الجهات
١٢٨٦	٠٢٨٠	١٥٦٦	مديرية الخرطوم
٠٢١٥	...	٠٢١٥	القضارف
٠٢٣٦	١٤٩	٠٣٨٥	مديرية بربر
٢١٩	٠٥٣	٢٧٢	مديرية دنقلا
٦٧٠	٢٠٨	٨٧٨	مديرية سنار
٣١٠	...	٣١٠	ادارة فيزوغلى
٤٣٢	٠٥٣	٤٨٥	محافظه سواكن
٥٧٩	٠٥٦	٦٣٥	محافظه مصوع
٢٣٢	٠٠٤	٢٣٦	سنهيت
١٢٦٨	١٥٠	١٤١٨	مديرية التاكا
٠٥٩٠	...	٠٥٩٠	القلابات
٦٤٥	...	٦٤٥	امديب
٧٨٢	١٦٩	٩٥١	مديرية فشودة
٠٧٩	...	١٩	السكة الحديد السودانية
٢٥٢٠	٢٣٤	٢٧٥٤	هرر والسواحل
٤٤٩	...	٤٤٩	بربرة وزيلع ونجره
١٤٣٧	٣٣٩	١٧٧٣	خط الاشنوى
١٥٠٠	...	١٥٠٠	الفاشر
١٠٠٠	...	١٠٠٠	داره
١٠٠٠	...	١٠٠٠	كلكل
١٧٠٠	٢٥٠	١٩٥٠	كردفان
١٠٠٠	٣٠٠٠	٤٠٠٠	بحر الفزال
١٨١٤٩	٤٩٤٢	٢٣٠٩١	يكون

على الوجه المشروح يعتمد ذلك ، ٨ شعبان سنة ١٢٩٩

فريق عسكرية

عهد السودان

الفصل الحادى عشر

علاقة مصر ببعض الدول الأوروبية

لم يكن للدول الأوروبية أى نشاط استعمارى فى أفريقيا الشرقية قبل امتداد الوجود المصرى إليها ، باستثناء بريطانيا التى كان لها علاقات صداقة مع سلطان زنجار ، ولكن بعد امتداد الوجود المصرى الى هذه المنطقة ، بدأت بعض الدول الأوروبية (مثل بريطانيا وإيطاليا وفرنسا) فى التنافس على استعمار بعض المناطق الاستراتيجية منها ، وقد زاد هذا التنافس بين هذه الدول بعد فتح قناة السويس والكشف عن منابع النيل وبعض الأجزاء الداخلية الأخرى من أفريقيا . وكانت هذه الدول قد عرفت مدى إمكانية أفريقيا الاقتصادية ، ربما عن طريق بعض الرحالة من أمثال زوشنتى بريشتى ، اندى قال فى هذا الصدد ما نصه : —

« توجد موارد اقتصادية لاهصر لها فى أفريقيا الوسطى ، وهى متروكة ولم يفكر أحد فيها حتى يومنا هذا ، وذلك بسبب قلة الأيدى العاملة والخبرة الفنية وطلب زوشنتى من الجمعية الجغرافية البريطانية أن تسرع بمناشدة الحكومات الأوروبية والعلماء فيها ، كى يحددوا جهودهم لاستعمار هذه المنطقة التى تنتشر المجاعة بين سكانها » (١) ويرجع ذلك فى المقام الأول الى عدم استغلال مواردها الاقتصادية . وبعد هذا النداء الذى أطلقه زوشنتى بادرت الدول الأوروبية ، وعلى رأسها بريطانيا باحتلال أجزاء كبيرة من أفريقيا .

Zuecchinetti, M.P.V. : mes voyages au Bahr El-Gazal et (١)
Noba. Bul. Soc. Kh. Geog. P. 51.

كانت علاقة مصر ببريطانيا في الفترة السابقة على عصر اسماعيل تتسم بانود والصدقة ، ويرجع ذلك الى أن بريطانيا لم تكن قد تدخلت بعد في شئون مصر الداخلية ، واستمرت هذه العلاقة هكذا ، حتى تولى اسماعيل حكم مصر، حيث حرص من جانبه على توطيد هذه العلاقة ، واتضح ذلك جليا عندما سمح للقوات البريطانية بالمرور من املكه في أفريقيا ، لمحاربة مك الحبشة ، وتخليص افراد القنصلية الانجليزية الموجودين في الحبشة من السجن ، وكان اسماعيل قد أمر حكمدار السودان ان يعامل الجنود الانجليز معاملة حسنة ، وخاصة أثناء مرورهم من الأراضي المصرية ، بالإضافة الى أنه سمح للقوات البريطانية أن تنشئ خطا تليفونيا يربط بين سواكن ومصوع ، بحيث تتولى هذه القوات حراسته ، وفي نفس الوقت طلب من شيوخ القبائل التي يمر الخط من بلادهم المحافظة عليه وعدم اتلافه . بل طالب منهم أيضا المساهمة في حراسته (٢) .

زيادة على ذلك فانه منح هذه القوات كميات من الأخشاب كي تستخدمها في بناء ما يلزمهم من مخازن في كل من مصوع وزولا ، وذلك لتخفظ فيها المهمات والذخائر والأمتعة الخاصة بها (٣) وكان أيضا قد أمر بوضع السفن المصرية التي تعمل في البحر الأحمر تحت تصرف قائد هذه القوات (٤) . وواصل اسماعيل العمل من جانبه على استمرار العلاقات الطيبة بين الدولتين ، والدليل على ذلك أنه بمجرد أن علم بعدم اهتمام محافظ مصوع بقائد الحملة الانجليزية والتحدث معه بلهجة شديدة ، أمر بفصله من منصبه،

-
- (٢) محافظ أبحاث السودان - دفتر ٥٦٠ معية تركي ، وثيقة ٢ ص ٤٩ في ٦ جماد اول سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م .
- (٣) محافظ أبحاث السودان - دفتر ٥٩٠ معية تركي ، وثيقة ١٣ ص ٨٨ في ٦ جماد اول سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م .
- (٤) محافظ أبحاث السودان - دفتر ٥٧٣ معية تركي ، وثيقة ٢ ص ٢٦ في ١ جماد ثان سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م .

وترحيله الى مصر ، قبل أن يعين مديرا بدلا منه ، وفي نفس الوقت أمر عبد القادر باشا محافظ سواحل البحر الأحمر أن يعتذر نيابة عنه للقائد البريطاني ، وقد جاء في هذا الاعتذار ما نصه :

«ياجناب القائد أن مولانا فخامة الخديو الأعظم قد عزل محافظ مصوع من وظيفته ، بمجرد أن وصل لعلمه خبر أعماله السيئة ، وطلب مني أيضا أن أبذل قصارى جهدي في المحافظة على خط الطغراف وأن اتبه على مشايخ العرب بعدم التجاسر على قطع أسلاكه » (٥) زيادة على ذلك فإنه لما علم بوفاة أحد الضباط الإنجليز الذي كان ضمن هذه القوة البريطانية ، أمر بأن تشيع جنازته رسميا في الإسكندرية ، وقد اشترك فيها عدد من كبار الشخصيات المصرية الذين كان من بينهم محافظ المدينة ، وناظر البحرية ، وعدد كبير من قواد الجيش (٦) .

وبعد أن انتهت الحرب بين الدولتين بانتصار بريطانيا على الخبشة ، قررت الحكومة الإنجليزية عودة قواتها الى أرض الوطن، وبيع كافة الأدوات والمهمات والدواب التي استخدمتها هذه الحملة في أثناء الحرب الى الحكومة المصرية ، بالإضافة الى بيع المخازن التي كانت الحملة قد أنشأتها في مصوع ، وقد وافق اسماعيل على شراء هذه الأشياء جميعها (٧) .

ويتضح من هذا العرض الموجز أن العلاقات المصرية البريطانية كانت على ما يرام ، منذ تولى اسماعيل حكم مصر ، ولكنها بدأت بعد ذلك في التدهور والانحيار ، وخاصة عندما بدأت مصر في مد نفوذها الى جميع سواحل البحر

(٥) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٧٣ معية تركي ، وثيقة ٢٨ في ٦ شوال سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م .

(٦) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥ عابدين صادر ظفراف رقم ٥٢٠ في ٢٠ شعبان سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م .

(٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٧٣ صادر المعية ، وثيقة ٤١ في ٢٥ محرم سنة ١٢٨٥ هـ الموافق ١٨٦٨ م .

الأحمر الغربية ، وكان من مظاهر هذا التدهور الذى بدا يظهر فى الانقراض بوضوح ، معارضة « راسل » الحاكم الانجليزى فى عدن ، لسياسة التوسع المصرى فى أفريقيا الشرقية والتي اتبعها اسماعيل الذى ضحى فى سبيل تحقيقها بالكثير من العتاد والأموال والجنود .

ولم تكثر مصر لهذه المعارضة فى بادئ الأمر وكان كل مانعته : ان تمام وزير خارجيتها ، بابلاغ تنصل بريطانيا فى القاهرة بالبيان التالى :

« ان سواحل البحر الأحمر الغربية ليست مستقلة ، بل انها لا تزال تحت السيادة العثمانية ، وهى ضمن البلاد التى تنازل عنها السلطان العثمانى للحكومة المصرية ، وذلك بمقتضى فرمان الذى تنازلت فيه عن سواكن ومصوع وملحقاتها » وكان قد اكد ذلك فى فرمان الذى صدر فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ والخاص بتعديل قاعدة توارث الولاية المصرية . وقد جاء فيه ما نصه :

« حيث أن مصر هى مقاطعه من مقاطعات مملكتى الأكثر أهمية ، وحيث ما برحت نبرهن حتى الآن على أمانتك وخلوصك نحو ذاتى الملوكة ، ولما كان مرادى أن أظهر لك بنوع سننى ساطع ، عظيم ثقتى التامة بك ، فررت بناء على هذا جميعه ، أن تنتقل ولاية مصر من الآن فصاعدا مع ما هو تابع اليها من الأراضى وكامل ملحقاتها وقائماتى سواكن ومصوع الى أكبر اولادك » (٨) .

ويضيف وزير الخارجية المصرى فى حديثه أن الحكومة المصرية كانت لاتزال تدفع الجزية المقررة عليها للدولة العثمانية لكى تؤكد تمسكها بهذه الممتلكات فعينت عليها عددا من المحافظين ، وكان من بينهم أحمد ممتاز باشا ، ومنزجر باشا الذى انتهت حياته نهاية حزنة فى موقعة الأوسه عام

(٨) رئاسة مجلس الوزراء (السودان) فرمان لسمو اسماعيل باشا تعدلت فيه قاعدة توارث الولاية المصرية فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦م الموافق ١٣ محرم سنة ١٢٨٣ هـ .

١٨٧٥م (٩) ولكن بريطانيا لم تقنع بتبريرات مصر ، بل اعتبرت الوجود المصرى فى السواحل الغربية للبحر الأحمر ، تهديدا لأمنها فى هذه المنطقة ، وخطرا يتهدد وجودها فى عدن والمحيط الهندى ، وفى هذا الصدد كتب المستر وود Wood قنصل بريطانيا فى عدن الى السير اليوت Sir. Eliot سفير بريطانيا فى الاستانة يخبره بما نصه :

« ان التنازل عن مينائى زيلع وبربرة يجعلان سواحل البحر الاحمر الغربية فى قبضة مصر » (١٠) .

واضح من هذه العبارة مدى حرص بريطانيا على عدم السماح لمصر بالاستيلاء على سواحل البحر الاحمر الغربية ، لأن ذلك فيما يبدو كان يتعارض مع مصالحها العسكرية والاستراتيجية والاقتصادية ، ولكن مصر لم تكتف فى بادئ الامر بهذه الاعتراضات البريطانية ، بل انها واصلت مد نفوذها الى شرق افريقيا . وبمجرد وصول قواتها الى بلدتى براوة وقسمايو بادرت بريطانيا باستخدام كل وسائل الضغط لاجبار مصر على سحب قواتها من هذه المنطقة ، مع ان سكانها ، كانوا قد رحبوا بالقوة المصرية بمجرد نزول أفرادها الى بلادهم وخاصة سكان براوة الذين لم يكتفوا بالترحيب بأفراد الحملة بل نجدهم يقدمون التماسا موقعا عليه من جميع مشايخهم يطلبون فيه الرغبة فى خضوعهم للسيادة المصرية ، كى تحميهم من الاغارات التى يتعرضون لها ، من جانب القبائل الداخلية ، لأن سلطان زنجبار كان قد فشل فى حمايتهم من اغارات هذه القبائل ، مع انهم كانوا يدفعون له الضرائب المقررة عليهم (١١) .

لم تترك بريطانيا الوجود المصرى فى شرق افريقيا يتوسع بل كلفت

(٩) د . محمد السيد رجب حراز : افريقيا الشرقية والاستعمار الاوربى فى القرن ١٩ صص ١٩٢ — ١٩٣ .
(١٠) المصدر السابق .

(١١) انظر صورة الالتماس بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر ، للمؤلف .

المستر كيرك Kirk قنصلها في زنجبار بالقيام على رأس قوة عسكرية بحرية للوقوف على تحركات القوة المصرية في منطقة نهر الجب ، وبعد وصول هذه القوة الى براوة ، حاول كيرك ومن معه من الجنود النزول على الشاطئ الصومالي ولكن القوة المصرية لم تمكنه من ذلك وبعد محاولات ودية من جانب كيرك سمح له قائد القوة المصرية بالنزول على الشاطئ على شرط الا يصطحب معه اى عدد من الجنود . وبعد ان انتهى كيرك مهمته كتب الى وزارة الخارجية البريطانية يقول ما نصه :

« ان التدخل المصرى في شرق افريقيا يهدد نفوذ سلطان زنجبار » .

من الواضح ان بريطانيا لم تدافع عن نفوذ سلطان زنجبار في شرق افريقيا ، بقدر ماكانت تدافع عن وجودها في هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة من العالم ، فقد بدأت منذ تلك اللحظة في تحريض هذا السلطان ، لكى يناوش القوات المصرية بكل الوسائل حتى يجبرها على الانسحاب من هذه المنطقة مع ان مصر كانت تهدف من وراء ذلك الى نشر الأمن والاستقرار والمخنية فيها بالاضافة الى القضاء على الجهل والتخلف ثم العمل على النهوض بها في كافة المجالات ، سواء كانت اجتماعية منها او الاقتصادية او السياسية ، زيادة على ذلك فانها كانت تريد ان تربط بين المنطقة الاستوائية من ناحية والساحل الغربى للمحيط الهندي من ناحية اخرى .

بدأت بريطانيا تتحرش بالوجود المصرى لآتفه الأسباب فعندما علمت بأسر مصر لأحد الضباط البريطانيين الذى كان يعمل في خدمة الحبشة أرسلت سفينة حربية لفك أسر هذا الضابط الذى كان يدعى كركم Kurkum ولكى تتجنب مصر الصدام مع بريطانيا وافقت على فك أسر هذا الضابط على شرط الا يعود مرة ثانية الى الخدمة في الجيش الحبشى (١٢) .

أدت سياسة الضغط التى اتبعتها بريطانيا ضد مصر الى اضطراب الأخيرة الى سحب قواتها من شرق افريقيا في ٢٠ يناير عام ١٨٧٦م لأنها كانت لاتريد اغضاب بريطانيا والدخول معها في صدام مسلح ، لان قواتها أصبحت

(١٢) محافظ أبحاث السودان - دفتر ٣١٧ ، عابدين ، وارد تلغراف ، وثيقة ٤٤٢ في ٣١ مارس سنة ١٨٧٦م .

غير قادرة على حماية هذه المساحات الشاسعة من أفريقيا علاوة على ظروفها المالية (١٣) .

لم تكف بريطانيا بكل هذه التصرفات تجاه مصر بل رغبت في أن تزيد تدخلها في شئونها الداخلية ، وذلك بعقد المعاهدات والاتفاقيات فتد عقدت معها معاهدة إلغاء الرق في أفريقيا في ٤ أغسطس عام ١٨٧٧م ، وقد تعهدت الدولتان في هذه المعاهدة بأن يعملتا معا على وقف وإلغاء تجارة الرق في أفريقيا (١٤) ، ولم يمض وقت طويل على إبرام هذه المعاهدة الا ونجد الدولتين يوتعان في الشهر التالي من نفس العام اتفاقية أخرى كان الغرض منها تحديد العلاقة بين الدولتين في كافة المجالات بما في ذلك تحديد نفوذ مصر في أفريقيا الشرقية ، وفيما يلي نص بنود هذه الاتفاقية :

— أن يكون لبريطانيا مكانة ممتازة في سواحل الصومال دون غيرها من الدول الأوروبية الأخرى .

— أن يتعهد اسماعيل وخلفاؤه من بعده ، بعدم اعطاء أى قطعة من أرض أفريقيا الشرقية لأية دولة اجنبية .

— أن يكون لبريطانيا الحق في تعيين قناصل لها في بلاد الصومال .

— أن يقوم الخديو اسماعيل بمنع وإلغاء تجارة الرق في أفريقيا بشرط أن تعاونه في ذلك السفن البريطانية .

— أن يتعهد السلطان العثماني بعدم اعطاء أية قطعة من أرض أفريقيا الشرقية لأية دولة اجنبية .

— أن يتعهد الخديو بمعاملة رعايا بريطانيا معاملة حسنة .

— أن تكون حدود مصر في أفريقيا الشرقية ، لغاية رأس حافون .

— أن تتمتع بريطانيا بحرية التجارة في سواحل البحر الأحمر (١٥) .

(١٣) محمد عبد المنعم يونس : الصومال وطنا وشعبا ، صص ٣٩ — ٤٠ .

(١٤) محفظة الرقيق رقم (١) المصدر السابق .

(١٥) ترجمة صورة التقرير الوارد من سفارة إنجلترا الى نظارة

الخارجية في ٢٧ تشرين عام ١٨٧٨م .

كان من نتيجة موافقة مصر على هذه الاتفاقية أن خسرت جميع الضرائب التى كانت تحصل عليها من هذه البلاد والتى بلغت قيمتها حوالى ١٠.٠٠٠ عشرة آلاف رأس من الماشية ، ٦.٠٠٠ ستين ألفا رأس من الأغنام ، بينما بلغت جملة ما أنفقته مصر على هذه البلاد حوالى ٧.٠٠٠ سبعين ألفا من الجنيهات بالإضافة الى الاتفاق العسكرى الذى بلغت قيمته حوالى ٤٠.٠٠٠ جنيه مصرى (١٦) وقد انتهت هذه العلاقة بين الدولتين باحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ م .

٢ - إيطاليا :

وأما عن علاقة مصر بإيطاليا فقد بدأت منذ نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر عن طريق المكتشفين الجغرافيين من رجال الدين (١٧)

(١٦) د . محمد محمود السروجى : المصدر السابق ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٤ .

(١٧) كان المبشرون الإيطاليون أول من ذهبوا الى أفريقيا الشرقية ، وكان من هؤلاء Antoine d'Abbadie الذى اصطحب معه الى الحبشة احد الرهبان الإيطاليين الذى قابله فى القاهرة وكان ذلك فى بداية الثلاثينات ، وبعد عودة انطوانى الى إيطاليا قابل البابا جريجورى الرابع عشر الذى وافق على ارسال رجلين من رجال التبشير المسيحى تحت رئاسة المنسيور دى جاكوبى Jacobis ، الذى عرف فى الحبشة فيما بعد باسم 'بونا يعقوب' ، ولما كان الملك تيودور يدين بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى رفض ماعده من مذاهب أخرى ، كالكاثوليكية والبروتستانتية ، مما اضطر دى جاكوبى الى مغادرة غندار عام ١٨٥٥م الى بلدة مصوع ، وهناك أسس مركزا لبعثة كاثوليكية .

لقد تمخض عن وجود المبشرين فى الحبشة أن طلب وزير الخارجية الإيطالية ضرورة انشاء مستعمرة للمبشرين وعمال السخرة فى شرق أفريقيا وذلك لتنشيط حركة التجارة بين الحبشة ومدينة بيدمت وقدر نجحت إيطاليا عام ١٨٥٩ فى موافقة ملك تجرة فى التنازل عن جزء من ساحل البحر الاحمر ، وخاصة فى المنطقة الواقعة بين خليجى زولا وحنفلية فى مقابل ان تساعده

وقد اتسمت هذه العلاقة التي كانت قائمة بين البلدين بطابع الود والصداقة ولكنها لم تستمر طويلا ، وذلك راجع الى اطماع ايطاليا الاستعمارية في افريقيا الشرقية ، ففي عام ١٨٦٦ طلبت غرفة جنوا التجارية من الحكومة الايطالية ان تقوم بالاستيلاء على احد موانى البحر الأحمر كي تكون بمثابة مستعمرة للايطاليين الذين يرغبون في الاتجار في الحاصلات الافريقية ويرجع الفضل في تحقيق هذا الغرض الى كل من سابيتو Sapeto وروباتينو Robattino اللذين زارا بلادا كثيرة من افريقيا الشرقية ، مثل تاجورة واقليم الباغوص وغيرها وكانا قد عاشا بين قبائل الحباب فتمكننا من معرفة الامكانيات الاقتصادية لهذه البلاد وكانا قد كتبا تقريرا اوضحا فيه كل مشاهداتهما عن احوال هذه البلاد وكانا قد اقترحا فيه انشاء محطة في خليج عصب لتزويد السفن الايطالية بما يلزمها من الوقود اثناء رحلاتها التجارية بين جنوا والهند ، ووافقت حكومة ايطاليا على هذه الفكرة ، ومنحت روباتينو اعانة مالية قدرت ببضعة ملايين من الفرنكات ، وذلك لمساعدته في شراء السفن اللازمة للملاحة في البحر الأحمر (١٨) وقد تمكن روباتينو بعد ذلك من شراء الاراضي الواقعة بين جنجا ورأس لومة بمبلغ ٦٠٠٠ ريال وقد قام بهذا البيع شيوخها الذين وقعوا العقد في ١٥ نوفمبر عام ١٨٦٩ ثم تمكن سابيتو بعد ذلك من شراء الأرض الواقعة بين رأس لومة وجونه علاه ، وجبل جنجا من بعض شيوخ عصب في مقابل حصولهم على مبلغ ٨١٠٠ ريال ، وتم توقيع العقد في ١١ مارس عام ١٨٧٠ ، وفي ١٥ مارس عام ١٨٧١ تمكن سابيتو من شراء

= ايطاليا ماديا وعسكريا في الحصول على عرش الحبشة ، واستمر المبشرون الايطاليون في محاولة انشاء مستعمرة في اقليم الباغوص والحماسين .
والى جانب رجال الدين الايطاليين قام المكتشفون الجغرافيون ايضا بارتداد اماكن كثيرة من افريقيا ، سواء كان ذلك في الشمال او الغرب او في السودان او شوا او بلاد الجالا او في البحيرات العظمى . وكان من بين هؤلاء ستيللا Stella وتشكى Cecchi وكيريني Chiarini ومياني Miani وبياجا Piaggia وكازاتي Cassati وجيسى Gessi ومارتيني Martini وماسارى Massari وماتئوس Matteocci
انظر مصر الافريقية للدكتور/جلال يحيى صص ١٢٠ - ١٢٥ .
(١٨) د . جلال الدين يحيى : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

رأس دمر من الشيخ برهان أحد شيوخ عصب ، كما قام ايضا بشراء جزيرة درمكية بمبلغ ٢٠٠٠ روبية . بعد ذلك تم رفع العلم الايطالى على رأس لومة ، كدليل على امتلاك ايطاليا لها . (١٩) .

لم تقف مصر مكتوفة الأيدي تجاه تصرف ايطاليا ، فقد اعتبرت هذا البيع بيعا باطلا وغير شرعى ، لأن المشايخ الذين وقعوا على عقود البيع كانوا يملكون فى خدمة الحكومة الخديوية ، وكانوا يتقاضون رواتب شهرية بينما اعتبرت ايطاليا من ناخيتها هذا الشراء بأنه شراء شرعى لأنها كانت تعتقد فيما يبدو بأن المشايخ المحليين كانوا غير خاضعين للسيادة المصرية وعللت الغرض من شرائها ، لميناء عصب وما جاوره من أرض يهدف الى استغلال الموارد الاقتصادية لهذه البلاد (٢٠) .

ردت مصر على هذه الادعاءات الباطلة من جانب ايطاليا بمذكرة جاء فيها ما نصه :

« ان الساحل الغربى للبحر الأحمر كان يتبع تركيا منذ دخول سليم الاول الى مصر ، الذى تمكن من مد نفوذه الى النوبة والى سواحل البحر الأحمر الغربية (سواكن ومصوع وزيلع وبربرة) وجعل كل هذه الموانئ تابعة الى ولاية الحجاز التى كانت جزءا من املاك الدولة العثمانية (٢١) وبهذا العمل تمكن العثمانيون من جعل البحر الأحمر بحيرة عثمانية ، واستمروا فى مواصلة السيطرة عليه حتى عام ١٨٤٥ غنى هذا العام تنازل السلطان العثمانى احمد على عن مينائى سواكن ومصوع فى مقابل ان يحصل من الآخر عنى مبلغ من المال قدرت قيمته بنحو ٢٥٠٠٠ ألفا من الجنيهات المصرية ، وبعد حكم محمد على ، آلت ملكية هذين المينائين الى الدولة العثمانية ،

(١٩) نفس المصدر ، ص ١٢٨ .

(٢٠) محفظة ٦ مجلس الوزراء (السودان) ملف ٧ مجموعة ٢٤ بدون

تاريخ .

(٢١) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة

المصرية الاولى ، ص ٢٥ .

ولكن لما تولى اسماعيل حكم مصر ضمهما « سواكن ومصوع » في عام ١٨٦٥ الى املاكه من جديد ، في مقابل ان يدفع الى الدولة العثمانية مبلغا من المال قدرت قيمته بنحو ١٣٣٦٥ جنيها مصريا ، وفي عام ١٨٧٥ تمكن اسماعيل من ان يضم الى املاكه في افريقية الشرقية كلا من هرر وزيلع وبربرة وبلهار وتاجورة (٢٢)

لم تكتف ايطاليا بكل التبريرات المصرية بل استمرت في ملكيتها لبناء عصب وما جاوره من اراض ، وكانت تتحين الفرص للحصول على المزيد من هذه الاراضي وقد شجعها على ذلك مشايخ النواحي الذين كانوا يبيعون ماتحت أيديهم من اراض خديوية ، مما مكنها بالتالي من الاستيلاء على مينائي ببلول ورهيطه واقامة الأبنية الخاصة بحفظ المهمات الحربية وغيرها وقد قدرت مساحة المنطقة التي تم لايطاليا الاستيلاء عليها في منطقة افريقيا الشرقية بنحو ٨٠ ألف ميل مربع (٢٣) .

لما فشلت مصر في اقناع ايطاليا بالتخلي عن الموانئ التي احتلتها في الساحل الغربى للبحر الأحمر ، عقدت معها معاهدة ، تضمنت النصوص التالية :

« ان يعترف كل من خديو مصر والباب العالي ، ودولة بريطانيا بشراء ايطاليا لبناء عصب ، الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، وباعتبار هذا الشراء شراء شرعيا » .

« ان تعترف الحكومة الايطالية بمعاهدة الرقيق التي عقدت بين كل من بريطانيا ومصر ، كما تعترف ايضا بسيادة مصر والدولة العثمانية على بقية الساحل الغربى للبحر الأحمر بالاضافة الى تمهدها بعدم توسيع حدودها في هذه المناطق » .

« اتفق ان يكون لايطاليا في عصب هيئة تجارية فقط وليس لها الحق في جعل عصب منطقة عسكرية ، كما انه ليس من حقها انشاء الاستحكامات العسكرية هناك » .

(٢٢) عبد المنعم يونس : المصدر السابق ص ٣٧ .

(٢٣) محفظة (٦) مجلس الوزراء « سودان » وثيقة بدون تاريخ

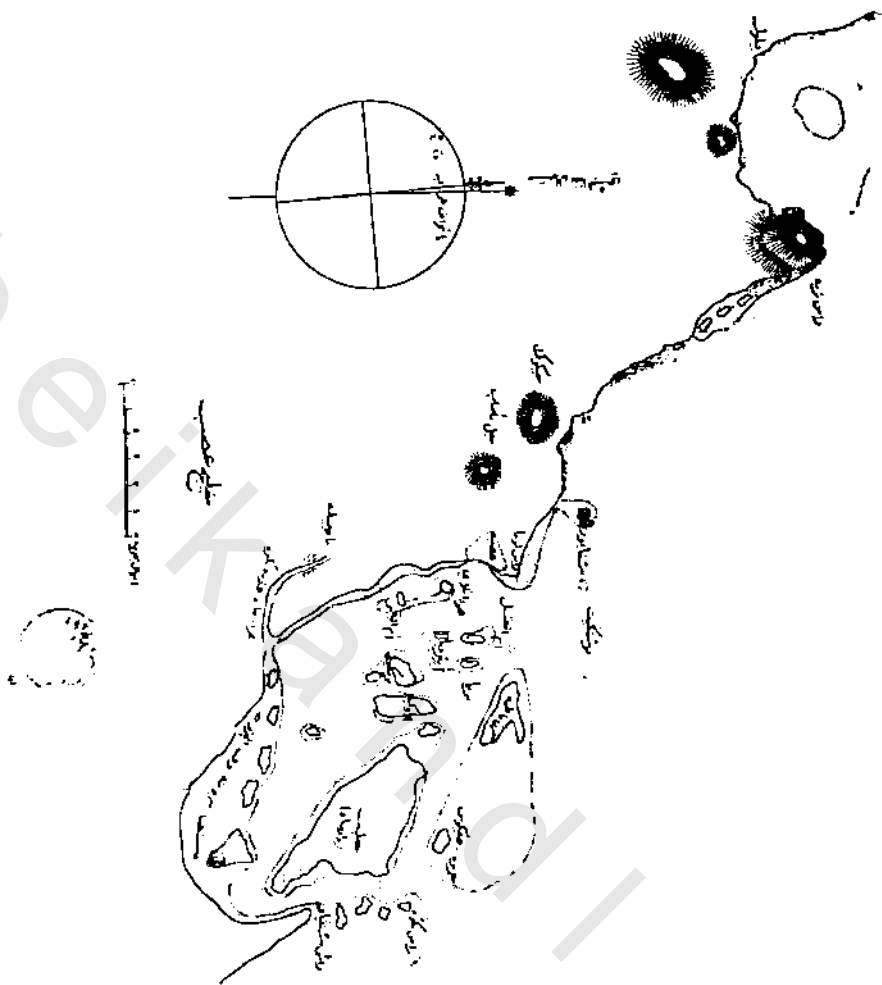
« يحرم على الإيطاليين تحريماً قاطعاً ادخال الاسلحة النارية والذخائر الى عصب » .

« على كل من ايطاليا وبريطانيا ومصر أن يتعاونوا معا من أجل تسهيل الاتصال بين الادارات المحلية في عصب * » (٢٤) .

٣ - فرنسا :

كانت العلاقة الفرنسية المصرية في أفريقيا طيبة للغاية ، ولم تبدأ هذه العلاقة في التدهور الا عندما بدأت فرنسا في اقتطاع جزء من الاراضي المصرية في أفريقيا الشرقية ، وقد لعب الفرنسي هنري لامبرت Henry Lambert دوراً هاماً في تحقيق هذا الغرض ، وكان لمبرت هذا يشغل وظيفة نائب قنصل فرنسا في عدن ، وكان على علاقة طيبة مع شيخ تاجورة الذي حصل من لمبرت على مساعدة مالية ، كان لها وقع طيب على هذا الشيخ الذي تنازل لفرنسا عن جزء من اراضي تاجورة ، ولكن لمبرت هذا لم يتمكن من اتمام هذه الصفقة وذلك لاغتياله بواسطة حاكم زيلع فاضطرت فرنسا ، ان ترسل الى تاجورة بدلا منه أحد ضباطها كي يقوم باجراء التحقيقات اللازمة لمعرفة اسباب قتل لمبرت ، وقد عاد هذا الضابط بعد ذلك الى فرنسا وهناك اخبر الحكومة الفرنسية بضرورة انشاء مستعمرة أو محطة فرنسية في تاجورة ، وكان شيخ تاجورة قد وافق على ذلك في عام ١٨٦١م وفي عام ١٨٦٢ عقد هذا الشيخ معاهدة مع فرنسا حصلت الاخرة بمقتضاها على اقامة مستعمرة في تاجورة في مقابل دفعها الى هذا الشيخ مبلغاً من المال بلغت قيمته ١٠.٠٠٠ ريال أو مايعادل ٥.٥٠٠ فرنك ، وعلى اثر ذلك رفع الفرنسيون العلم الفرنسي فوق اوبك (٢٥) وفي نفس الوقت عقدت فرنسا مع الحبشة معاهدة تجارية كان الغرض منها تنشيط حركة التجارة بين البلدين (٢٦) وفي ١٩ من شهر مايو سنة ١٨٦٢ تمكن الفرنسي سيفر من الاستيلاء على خليج اوبك .

(٢٤) تقرير مشروع اتفاق يتعلق بحلول حكومة ايطاليا في ميناء عصب بدون تاريخ .
* انظر الخريطة الخاصة بميناء عصب رقم (٨) خلف صفحة ٢٤٨



صورة الخريطة رقم (٨)

وهي تمثل خليج عصب ، وماجاورده وتقع الى الجنوب من مصوع

لم ترسل فرنسا قوات عسكرية الى اوبك ، بل اكتفت بإرسال الأشخاص الراغبين في تأسيس مؤسسات تجارية هناك وكان هؤلاء مسئولين عن حماية أنفسهم ، وكان من هؤلاء الفرنسيين الذين ذهبوا الى اوبك واستوطنوا فيها خاصة في الفترة ما بين ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ كل من دينيس دي ريفوار Denis de Rivoire وبيير ارنو Pierre Arnaud وروس Ross وهيسي Hesse وغيرهم (٢٧) .

يبدو ان فرنسا لم يكن لها اطماع استعمارية في افريقيا في بداية الامر كغيرها من الدول الأوروبية ، فربما يرجع ذلك الى انها لم تكن مقتنعة باستعمار اجزاء من افريقيا ، لان الوقت لم يكن قد حان بعد . ومن المرجح ايضا ان يكون السبب في عدم ارسالها جنودا الى اوبك هو انها كانت تريد ان توضح لمصر بأن هدفها في افريقيا هو هدف تجاري وليس هدفا استعماري ، وهذا الترجيح غير صحيح لأننا نجد ما فيها بعد ترسل الى اوبك نحو ٢٢٠ جندي (٢٨) .

بعد هذا العرض الموجز ، يمكن القول بأن استيلاء بعض الدول الأوروبية (بريطانيا - إيطاليا - فرنسا) على بعض الموانئ الاستراتيجية من افريقيا الشرقية ، كان بداية الاستعداد للاستيلاء على املاك مصر في هذه المناطق ، ويمكن ارجاع ذلك الى ضعف القوة العسكرية

(٢٥) د. جلال الدين يحيى : مصر الافريقية ، المصدر السابق ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢٦) Lewis, L.M. : The modern History of Somalia from nation to state. P. 41.

(٢٧) د. جلال الدين يحيى : المصدر السابق ، ص ١١٠ ، ١١٨ .

(٢٨) محافظ أبحاث السودان - دفتر ٥٥ عابدين ، وارد تليفراف رقم ١٠١٩ في ١١ محرم سنة ١٢٩٧ الموافق ١٨٧٩م .

المصرية ، وعدم مقدرتها على حماية الاقاليم المصرية ، بالاضافة الى اطماع هذه الدول فى استعمار بعض المناطق الاستراتيجية من افريقيا ، واتخاذها كمناطق وثوب الى قلب القارة فيما بعد ، ويرجع ذلك ايضا الى تهاون المشايخ المحليين فى حكم بلادهم الذين كانوا يعملون كموظفين فى ظل السيادة المصرية ، فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الخزانة خاوية وأصحاب الديون يتكاثرون عليها ، بالاضافة الى اشتداد الثورة فى شمال الوادى وفى جنوبه .

obeikandi.com

الفصل الثاني عشر

الكشوف الجغرافية المصرية (عصر اسماعيل)

من المعروف ان منابع النيل ظلت مجهولة طوال التاريخ وحتى القرن التاسع عشر ، فكان العالم لايعرف شيئا عن مصادر هذا النهر ، التي ظلت لغزا حير العلماء والباحثين ، ولكن هذا اللغز لم يستمر طويلا دون حل ، وذلك بفضل الجهود الكشفية التي قامت بها مصر في القرن التاسع عشر .

فلما تولى محمد على حكم مصر ، حاول الكشف عن منابع النيل ، حيث كانت هدفا من الاهداف التي دفعته الى الدخول الى اواسط افريقيا ، ففى عام ١٨٢٠ ، ارسل حملة عسكرية تحت قيادة ابنه اسماعيل الى السودان ، وقد تمكنت هذه الحملة من الوصول الى فازوغلى ، والكشف عن جميع المناطق التي مرت من خلالها . ثم ارسل حملة أخرى تحت قيادة البك الدفتردار الى كردفان ، وكانت قد تمكنت ايضا من الكشف عن المناطق التي مرت من خلالها هذا الى جانب محاولاتها الكشف عن المعادن . وقد رسم الدفتردار خريطة وضح عليها خط سير حملته .

لم تنته جهود محمد على الكشفية عند هذا الحد ، بل انه ارسل في الفترة ما بين ١٨٣٩ - ١٨٤٢م ، ثلاث حملات عسكرية ، وذلك للكشف عن منابع النيل ، وتمكنت هذه الحملات جميعها من الوصول الى خط عرض ٥٤ ، ٤٢ شمال خط الاستواء ، ولكنها لم تستطع التقدم صوب الجنوب اكثر من ذلك ، فربما يرجع السبب في ذلك الى عدم مقدرة السفن على اجتياز الجزء الباقي من النيل والوصول الى البحيرات الاستوائية ، وربما يرجع ذلك ايضا الى أن قوات الحملة ، أصبحت غير قادرة على الوصول الى مناطق أبعد من تلك النقطة التي وصلت اليها ، وذلك لما لاقاه جنودها من صعاب ومشقة ، اثناء هذه الرحلة الطويلة ، ويمكن تعليل ذلك ايضا بأن محمد على

اعتقد في عدم امكانية الكشف عن منابع النيل . وخاصة بعد ان ارسل ثلاث حملات متتالية ، زيادة على ذلك فانه لم يعد في كامل صحته ، حيث كانت السن قد تقدمت به ، واصبح نشاطه محدودا .

ولكن على الرغم من فشل حملات محمد على ، في الكشف عن منابع النيل الا انها تمكنت من القاء الضوء على كافة المظاهر الطبيعية لجميع المناطق التي مرت من خلالها وعلى احوال السكان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وفتحت الطريق امام التجارة بين الشمال والجنوب ، ومهدت لانتشار تجارة الرقيق . بالاضافة الى انها شجعت المغامرين والرحالة من دول اوربا ، من امثال سبيك وجرانت وبرتون على المجيء الى افريقيا حيث تمكنوا منذ عام ١٨٥٧ من الدخول الى افريقيا والوصول الى بحيرة فيكتوريا ، ومنها اتخذ كلا من سبيك وجرانت طريقهما عبر نهر سومرست الى غندوكرو ومنها الى الخرطوم بالقاهرة ثم اوربا التي وصلوها عام ١٨٦٣ (١) .

بالاضافة الى ذلك فان محمد على امر حكمدار السودان احمد باشا ابو ودان ، ان يقوم بكشف المنطقة الواقعة بين الخرطوم وبلدة الناقة وبعد كشفها تبين ان سكانها ، كانوا يعيشون في عزلة عن العالم ، وذلك بسبب التخلف الذي لحق بهم نتيجة للبيئة التي كانوا يعيشون فيها حيث حرمتهم من نمر المدنية والحضارة (٢) .

ولكن على الرغم من كل الجهود التي بذلها محمد على ، من اجل الكشف عن منابع النيل الا ان هذه المنابع ظلت غير معروفة للعالم باستثناء الاجزاء البسيطة جدا التي تم كشفها بواسطة حملاته ، وكذلك التي تم كشفها بمعرفة كل من سبيك وجرانت وصمويل بيكر ولكن لما تولى اسماعيل حكم مصر اعتنى عناية خاصة بالكشوف الجغرافية لبعض المناطق الافريقية بوجه عام ، والكشف عن منابع النيل بوجه خاص ، وقد شملت المناطق التي تم كشفها في عصر اسماعيل السودان شرقه وغربه ، ومنطقة بحر الفزال ومنطقة اعالي

(١) د . زاهر رياض : كشف القارة الافريقية ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) د . السيد يوسف نصر : المصدر السابق ص ٢٠ — ٤٧ .

النيل ، وأثريقتيا الشرقية ، وسوف اتناول بإيجاز شديد ، الحديث عن هذه المناطق .

١ - السودان :

(١) غرب السودان :

بدأ اسماعيل في ارسال اول بعثة كشفية الى دارفور منذ عام ١٨٦٧ ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة القائمقام محمدنادي الذي بدأ مهمته من بلدة الطيرة الخضراء (٣) الواقعة في منطقة جبال النوبا وحتى الفاشر ، وقد سجل محمد نادي مشاهداته الخاصة ، بالسكان الذين مرت البعثة من خلال بلادهم ، والخاصة بطبيعة الأرض ، بما فيها من آبار مختلفة الأعماق والمسافات ، وأشجار ونلال ووديان ، بالإضافة الى ذلك ، غناه القى الضوء على الحياة الخاصة بسلطان دارفور ، وكيفية معاملته لشعبه وأسلوب حكمه ، زيادة على ذلك فانه وقف على قوة جيشه بل وعلى عدده ، كما القى الضوء كذلك على الحياة الخاصة للسكان من كافة النواحي (٤) .

وفي ٢٠ مارس ١٨٧٥ أرسل اسماعيل حملة كشفية أخرى بقيادة الكولونيل بروت ، وذلك لكشف المنطقة الممتدة من أم درمان وحتى الأبيض ، وقد تمكنت هذه البعثة من القاء الضوء على البلاد التي مرت من خلالها ، من الناحية الجغرافية وغيرها من النواحي الأخرى ، وكان بروت قد تقابل في بلدة الأبيض ، مع الكولونيل كولستون الذي كان في أشد المرض مما اضطره ذلك الى التخلي عن قيادة بعثته الى الكولونيل بروت ، وسار الاثنان معا الى أن وصلا الى الخرطوم . وقد رسم بروت خريطة لبلدة الأبيض (٥) .

(٣) بلدة الطيرة الخضرة سبق تفسيرها في الباب الاول .

(٤) تقرير محمد نادي ، محفظة ٩ معية عربى ، مستخرج من المعية التركية من المحفظة ٤١ - ٤٢ في ٢٠ صفر عام ١٢٨٤ الموافق ١٨٦٧ م .
(٥) تقرير المسيو بروت ، مجلة أركان حرب الجيش المصرى ، العدد الأول ، السنة الثالثة ، الجزء الأول من المجلد الاول صص ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٧ .

وفي ٢٠ أبريل سنة ١٨٧٥ قام الكولونيل كولستون بك Colston على رأس بعثة كشفية الى الأبيض ، فقد بدأت هذه البعثة مهمتها من بلدة الدبة الواقعة على النيل النوبي بالقرب من بلدة دنقلة العجوز الى الأبيض ، وكان كولستون قد وصف في تقريره طبيعة الطريق الذي سارت بعثته من خلاله ، كما أنه ألقى الضوء على الأبار والوديان ، وعلى القبائل التي تقطن هذه المنطقة وقد رسمت البعثة خريطة للمنطقة التي مرت من خلالها (٦) .

وفي ١١ ديسمبر عام ١٨٧٥م أرسل اسماعيل ، اليوزباشي (النقيب) محمود أفندي صبرى ، على رأس بعثة كشفية ، لكشف المنطقة الشمالية الغربية من دارفور ، وتمكنت هذه البعثة من وصف المظاهر الطبيعية لهذه البلاد ، كما وصفت الحياة العامة لسكان هذه المنطقة (٧) .

وفي ١٩ فبراير ١٨٧٦م ، أرسلت مصر الكولونيل بردى ، لكشف المنطقة الممتدة من دارا ، وحتى حفرة النحاس ، وكان بردى قد تمكن من وصف طبيعة الأرض التي مرت بعثته من خلالها ، كما تمكن من لقاء الضوء على حياة الشعوب والقبائل التي تقطن هذه البلاد وتمكن من زيارة منطقة حفرة النحاس ، والتي كان السكان يستخرجون منها النحاس ، ولكن بطريقة بدائية ، وكان بردى قد رسم ثلاث خرائط ، منهم خريطة للمنطقة الواقعة غرب دارفور ، والتي تعرف باسم خور الكوه ، وخريطتين أخرتين للمنطقة الواقعة بين دنقلة العجوز والفائر ، وكتبت بيانات واحدة منهما باللغة الأجنبية وكتبت بيانات الأخرى باللغة العربية (٨) .

(ب) شرق السودان :

ويمثل شرق السودان حلقة الاتصال ، بين غرب السودان ، وبين

Colston : Report sur le Kordofan. Bul. Soc. kh. Geog. (٦)
Serie V-XI. PP. 11-21.

(٧) محمود أفندي صبرى ، مجلة أركان الجيش المصرى ، العدد الثانى
السنة الثالثة — المجلد الأول ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٧ .

Purdy : Les pays Dera et Heufrah en Nahas. Bul. Soc. (٨)
Kh. Geog. Serie. I-V. P. 401.

الساحل الغربى للبحر الأحمر ، ولما كان معظم هذه البلاد لا يزال مجهولا ، فقد قرر اسماعيل باشا أن يرسل فى سبتمبر عام ١٨٧٥م حملة عسكرية تحت قيادة ارندروب ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين سنهايت على البحر الأحمر ، ومنطقة جونديت ، شمال الحبشة وتمكنت هذه الحملة من القاء الضوء على أحوال هذه البلاد ، من غابات ، وأدغال ومستنقعات وغيرها ، وقد رسمت البعثة خريطين لمنطقة جونديت ، وضحت عليها كافة المظاهر الطبيعية لتلك المنطقة .

وفى نوفمبر من نفس العام ، أرسل اسماعيل أيضا حملة عسكرية أخرى ، تحت قيادة منزجر باشا وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين تاجورة على البحر الأحمر ومنطقة الأوسه الواقعة فى جنوب الحبشة وقد كتب أحد ضباط هذه الحملة ، تقريرا شاملا وضح فيه طبيعة الطريق الذى سارت الحملة من خلاله ، والمظاهر الطبيعية الأخرى (٩) .

وفى عام ١٨٧٦ أرسل اسماعيل حملة عسكرية أخرى تحت قيادة راتب باشا الى مصوع ، وذلك لمحاربة ملك الحبشة وكشف المنطقة الواقعة الى الداخل من مصوع ، وقد تمكنت هذه الحملة من كشف كثير من المناطق التى مرت من خلالها مثل منطقة سنهايت ، وقرع ، وخرقيفو ، وحطملو ، وأم كلوا وتياخور وتمكنت أيضا من القاء الضوء على البلاد والأماكن التى مرت من خلالها (١٠) .

وفى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٠م أرسل الخديو توفيق ، حملة كشفية أخرى تحت قيادة البكباشى محمد مختار ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين بلدة أبى حراز الواقعة على النيل الأزرق ، وبين بلدة كسلا ، وتمكنت هذه البعثة من كشف كل من بلدة القصارف والقلابات وتومات ، ولاكاتاكار ، وأميديب وكسلا . وكتب محمد مختار تقريرا شاملا ضمنه وصفا دقيقا للمظاهر الطبيعية نكل البلاد ، ولطبيعة الطريق الذى سارت البعثة من خلاله ، كما ألقى الضوء على العادات الاجتماعية التى كانت سائدة بين سكان تلك البلاد (١١) .

(٩) انظر تقرير حملة الأوسه بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا للمؤلف .

(١٠) انظر تقرير حرب الحبشة عام ١٨٧٦م بكتاب الوثائق للمؤلف .

Mohamed Moktar : Dans le Sudan oriental. Bul. Soc. Kh.

Geog. N. II. PP. 5-18.

والى جانب جهود مصر الكشفية في شرق السودان ، كانت هناك الجهود الكشفية غير الرسمية التي كانت تتم بمساعدة مصر ، فقد قام بهذه الكشف كثير من الرحالة والمغامرين ، منهم صمويل بيكر ، الذي تمكن من كشف منطقة نهر العظيرة ، والدكتور يونكر الذي تمكن من اكتشاف منطقة خوربركة عام ١٨٧٦م وبصفة خاصة الجزء الداخلى ، من هذه الخور الذى ظل غير معروف للعالم الخارجى مدة طويلة من الزمن ، بالإضافة الى ما قام به رجال البعثات الكاثوليكية في هذا المجال من أمثال بلتريم ومارتينى ومارنو وغيرهم كثيرون (١٢) .

٢ - منطقة أعالي النيل :

وبالنسبة لمنطقة أعالي النيل ، فقد أرسل اسماعيل في عام ١٨٧٠م حملة كشفية تحت قيادة السير صمويل بيكر ، الذى تقاضى من الحكومة الخديوية مرتبا سنويا قدره عشرة آلاف جنيه (ذهب) ، وكان الفرض من إرسال هذه الحملة ، هو الكشف عن منابع النيل ، ثم العمل على استتباب الأمن في جميع البلاد التى تخضع للسيادة المصرية ، والقضاء على الرق ، وتأسيس نجارة شرعية هناك ، بالإضافة الى تأسيس حكومة قوية (١٣) .

وكان من نتائج حملة السير صمويل بيكر ، أن تم انشاء ثلاث محطات عسكرية في منطقة أعالي النيل ، وتم أيضا الكشف عن بعض المناطق الجديدة في المديرية الاستوائية ، ولكن على الرغم من كل ذلك الا أنها فشلت في القضاء على تجارة الرق ، علاوة على اثارها عداا الأهالى ضد الحكومة الخديوية ، وذلك بسبب هجومها عليهم من أجل الحصول منهم على مايلزمها من مؤن ، ويمكن تعليل فشلها بعدم تزويدها بالمؤن الكافية التى تمكنها من انجاز مهمتها ، وربما يرجع ذلك أيضا الى معاملة صمويل بيكر السيئة للوطنيين ، التى دفعتهم الى مناوشة الحملة ، مع أنه كان في امكانه أن يعاملهم باللين ، حتى يكسب ثقتهم وعطفهم وتعاونهم ، ومن المرجح أن يكون هذا الفشل ،

(١٢) د. جلال الدين مصطفى يحيى : مصر الأفريقية ، المصدر السابق

ص ١٢٣ .

(١٣) د. جلال الدين يحيى نفس المصدر صص ٧٥ ، ٧٦ .

راجعا الى صعوبة المواصلات ، التى كان لها اثر فعال فى احباط مهمة الحملة

لم يكتف اسماعيل بذلك ، بل ارسل فى ٢٢ مارس ١٨٧٤م حملة كشفية اخرى ، تحت قيادة غردون باشا الذى اصطحب معه عددا من الضباط المصريين والأجانب ، من أمثال ابراهيم فوزى ، وجيسى ، وماسون ، وشايبه لرنج ، وأرنست لينان دى بلفون ، وكانت حملة غردون هذه قد تمكنت من الوصول الى بحيرة البرت نيازا ، وهناك ارسل غردون باشا ، رومولى جيسى على رأس بعثة كشفية للابحار فى هذه البحيرة ، وذلك لمعرفة حدودها الجنوبية ، وما ينصل بها من انهار ، ولكن جيسى فشل فى تحقيق هذا الهدف ولكنه تمكن من رسم خريطة للبحيرة ، فاضطر غردون باشا ، بعد ذلك الى أن يرسل حملة أخرى بقيادة ماسون بك Masson Bey الذى تمكن من الدوران حول شواطئ البحيرة وتمكن أيضا من معرفة القرى التى تقع بجوار شاطئها الشرقى ، وكان من هذه القرى قرية فاكوفيا ، التى يعمل سكانها بصيد الاسماك ، وباستخراج الملح ، وبيعه للقبائل المجاورة ، وتمكن ماسون أيضا من لقاء الضوء على احوال هؤلاء السكان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية وتمكن من كشف مصب نهر السليكى ، الذى يتصل بلبحيرة من جهة الجنوب ، ورسم ماسون خريطة للبحيرة وضع عليها خط سير بعثته فوق سطح مياه البحيرة ، كما رسم أيضا خريطة لجزء من بحر الجبل (١٤) .

وفى عام ١٨٧٥ ارسل اسماعيل باشا ، بعثة كشفية بقيادة شايبو لونج Chaille-Long وذلك لكشف المنطقة الممتدة من بحيرة البرت وحتى اوغندا ، وكان عليه أيضا ان يعقد معاهدة صداقة بين مصر وبين ملك اوغندا الملك ميتسا Metsa وقد تمكنت هذه البعثة من كشف المنطقة التى سارت من خلالها ، وألقت الضوء على سكانها من الناحية السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية . وبعد أن أدت مهمتها فى اوغندا قرر شايبولونج أن يذهب

(١٤) ماسون بك ، تقرير عن كشف بحيرة البرت ، جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، السنة الثالثة ، الجزء الثالث من المجلد الثانى ، العدد التاسع عشر صص ٦٨٠ - ٦٨١ .

لكشف بحيرة كان قد سمع عنها من السكان هي بحيرة كيوجا أو كودج Codge وبعد ان كشفها لونج اطلق عليها اسم بحيرة ابراهيم ورسم لها خريطة وضع عليها خط سيرة .

ولكن على الرغم من كشفه لهذه البحيرة الا ان الجمعية الجغرافية البريطانية لم تنشر اسمه على الخريطة التي اعدتها لبعض المناطق التي تم كشفها في منطقة اعالي النيل ، بل وام تنسب اليه كشفه لبحيرة ابراهيم ، مما اضطره ذلك الى ان يشكو الى غردون باشا ، الذي طلب بدوره من المسؤولين في لندن عن رسم الخرائط الا بتجاهلوا اسم لونج مرة ثانية ، ولكنهم لم يهتموا بذلك ؛ فقد شاعد لونج على خريطة نشرها كيث جوستون Keith-Johnston في عام ١٨٨٠ خطأ أكبر من السابق وهو احوال كلمة كودج محل اسم بحيرة ابراهيم ، بل ونسب كشف بحيرة كودج هذه الى شخص آخر غير لونج ، مما دفع لونج الى ان يشكو مر الشكوى للمرة الثانية ، وتقدم بشكواه هذه المرة الى السيد/رذر فورد الكوك Ruther Ford نائب رئيس الجمعية الجغرافية البريطانية في ١٩ مايو سنة ١٨٨١ مما اضطر الجمعية الجغرافية البريطانية الى ان تكلف المستر راغن استين-Raven Stein باعداد خريطة لافريقيا الوسطى ، بحيث يظهر عليها اسبقية لونج في اكتشافه لبحيرة ابراهيم (١٥) ، وكان لونج قد كتب عددا من الخطابات التي كان يرسلها الى الجهات العلمية والرسمية بشأن هذا الموضوع (١٦) .

Long, C. : Decouverte de source du Nile. Bul. Soc. Kh. (١٥)
Geog. PP. 540-542.

(١٦) انظر البعض من خطابات شايولونج التي ارسلها الى الجهات المسئولة عن رسم الخرائط ، والتي يطالب فيها باحقته في كشفه لبحيرة ابراهيم وبضرورة ان تحمل اسم (بحيرة ابراهيم) بدلا من اسم (بحيرة كيوجا) في كتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية في افريقيا للمؤلف . ولكننا نكتفي هنا بنشر صورة لاحداها وهو على النحو التالي : —

Colonel Chaillé-Long.

Chevy Chase, Md.

Dear sir,

وفي عام ١٨٧٥ أرسل اسماعيل بعثة كشفية أخرى تحت قيادة أرنست نينان دي بلفون Ernest De Bellefond وذلك لكشف المنطقة الممتدة من بلدة الرجاف الواقعة في جنوب السودان وحتى بلدة فاتيكو ، ومن فاتيكو واصلت البعثة المسير الى أوغندا ، فقد تمكنت من القاء الضوء على كافة البلاد التي مرت من خلالها ، من حيث المظاهر الطبيعية الممثلة في الوديان ، والسهول ، والغابات . وبعد أن وصل أرنست الى أوغندا استطاع أن يتجول في الجانب الشرقي لبحيرة فيكتوريا ورسم أرنست خريطين للمنطقة التي مرت ببعثته من خلالها (١٧) .

والى جانب جهود مصر الكشفية في أعالي النيل ، وجدت الجهود الكشفية غير الرسمية التي كان يقوم بها الرحالة والمغامرون من الأجانب ، من أمثال برون روليه Brun Rullet الذي تجول في منطقة النيل الأبيض وبحر الغزال ، وجون بثيرك John Petheric الذي تجول في منطقة بحر الغزال ، وديمالزاك De Malzak الذي اكتشف بعض أجزاء من المديرية الاستوائية ، وصمويل بيكر الذي اكتشف بحيرة البرت نيانزا ، والدكتور يونكر الذي تمكن من كشفه

=In accordance with the request in your letter of the 6th. ultimo, I have brought its subject matter before the first meeting of the Council of the Society after our recess.

After due consideration, standing instructions have been issued to the Mapping Departement that in all such maps, issued by the authority of the Society, as are on a sufficiently large scale to make it practicable, the name «Lake Ibrahim» shall be added in brackets, to the native name, as was done in the Society's map prepared by Mr. Ravenstien.

I have the honour to be, Sir,
Your obedient servant,
GEORGE TAUBMAN GOLDIE,
President R.G.S.

De Bellefond, E.L. : Itineraire et Nots. Bul. Soc. Kh. (١٧)
Geog. serie I-V. PP. 295-296.

ما يقرب من حوالى ٢٥ نهرا ، لم يسبق لأحد اكتشافها من قبل ، وقد رسم يونكر خريبتين للمنطقة التى كشفها وضع عليهما كافة المظاهر الطبيعية التى توجد بتلك المنطقة ، وكنوبلخر الذى وصل الى بلاد البارى ، وهناك انشأ مركزا لبعثة كاثوليكية (١٨) . والى جانب ما سبق ذكره ، وجد مغامرون آخرون من امثال استيلا Stella وسابيتو Sapeto ومياني Maini وبياجا Piaggia وكازاتى Casati وماسارى Massari ومانتيوس Matteocci وغيرهم (١٩) .

٢ - افريقية الشرقية :

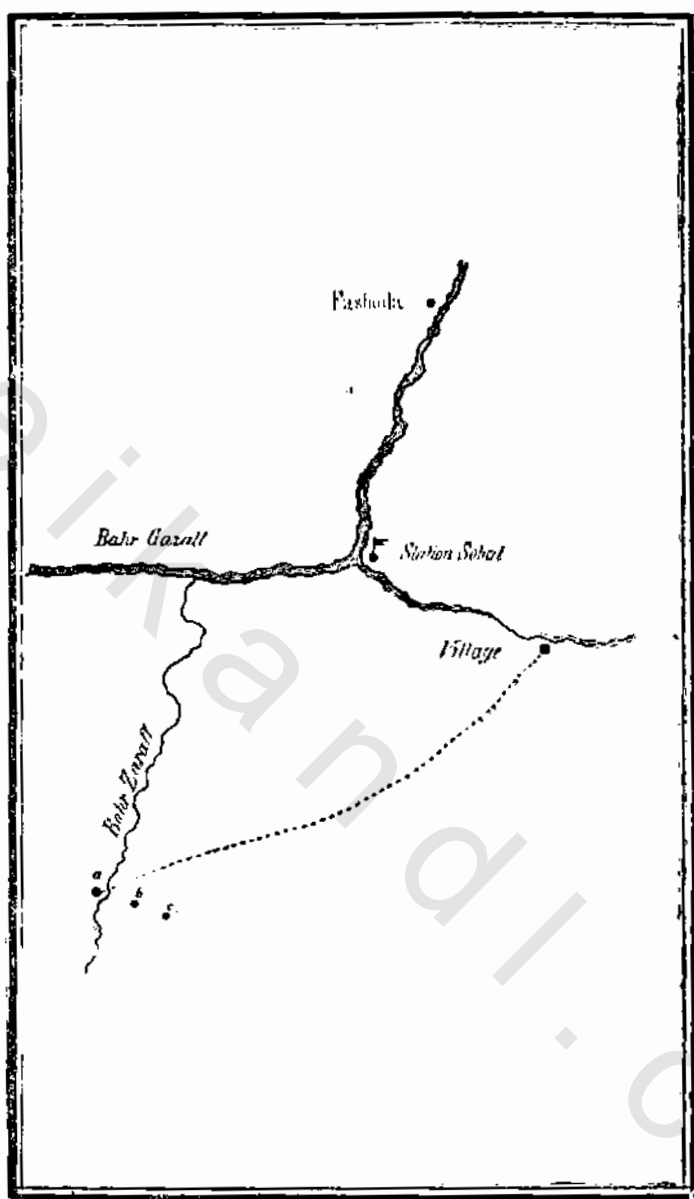
عمدت مصر الى ضم سواحل البحر الأحمر الغربية ، وكذلك خليج عدن وسواحل المحيط الهندي الغربية تحت السيادة المصرية ، فقد بدا اسماعيل فى تنفيذ ذلك منذ حصل من الدول العثمانية ، على مينائى سواكن ومصوع ، وقد اكد السلطان العثمانى هذا التنازل فى فرمان ٢٧ مايو عام ١٨٦٦ الذى على اثره سمر اسماعيل باشا عدة بعثات كشفية لارتداد هذه المنطقة ، وكانت الاولى منها بقيادة جعفر مظهر ، الذى ارتاد فى عام ١٨٦٧ سواحل البحر الأحمر الغربية حتى باب المندب ، وقد كتب تقريراً ضمنه كافة مشاهداته ، عن احوال هذه البلاد من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ومن بعده قام جبالى باشا على رأس بعثة عسكرية وذلك للمرور على سواحل افريقية الشرقية . وتمكن من الوقوف على احوال هذه البلاد ، من كافة النواحي ، وفى عام ١٨٧١ ، قام احمد ممتاز باشا على رأس بعثة كشفية الى بلدة بلهار ، وذلك لاستطلاع احوالها وكتب تقريراً وافياً عن احوال هذه البلدة .

وفى عام ١٨٧٥ أرسل الخديو اسماعيل ايضا بعثة كشفية تحت رئاسة اللواء محمد رؤوف باشا ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين زيلع على البحر الأحمر ، وبين هرر فى الجنوب وقد تمكنت هذه البعثة من مشاهدة كافة

(١٨) د. جلال الدين مصطفى : المصدر السابق ص ١٢٢ .

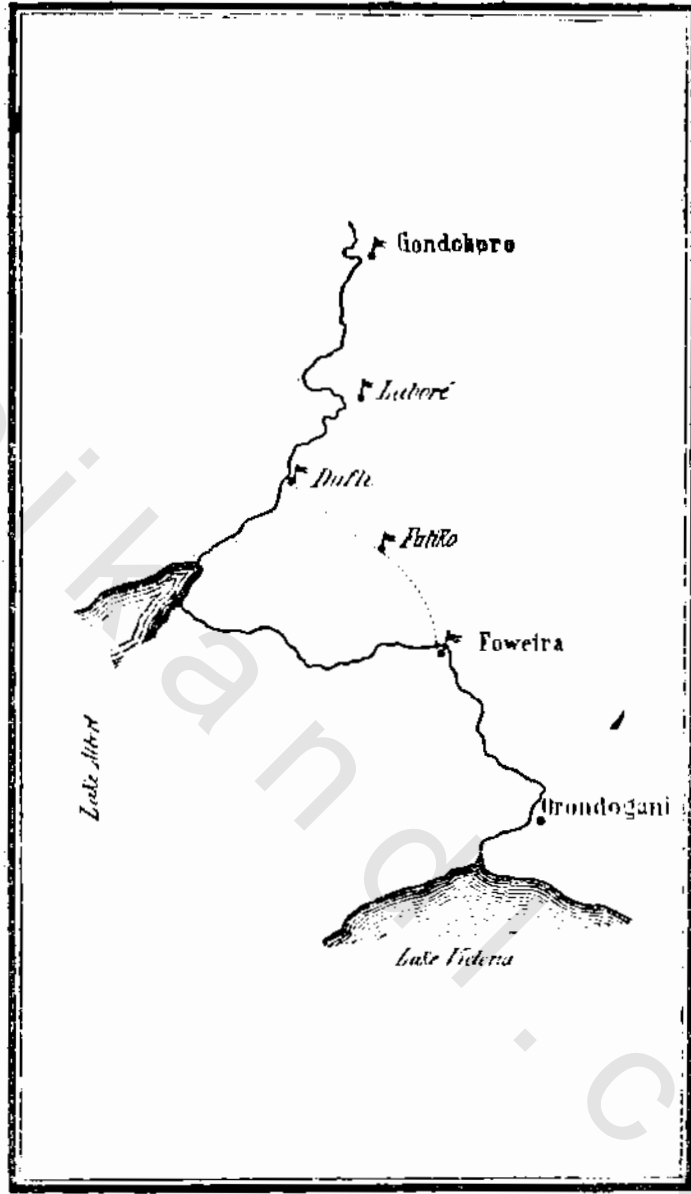
(١٩) نفس المصدر ص ١٣٥ ، ١٣٨ ، وانظر الخريطة رقم « ١ »

ورقم «ب» خلف صفحة ٢٦٢ .



الخريطة رقم (١)

هذه الخريطة مستخرجة من كتاب أقاليم « خط الاستواء » وهي توضح النيل الأبيض وبحر الغزال وبحر الزراف ومحطة السوياط .



الخريطة رقم (ب)

هذه الخريطة مستخرجة من كتاب « أقاليم خط الاستواء »
 «provinces of the Equator» وهي توضح عندنا من المحطات
 التي أنشأتها مصر في منطقة أعالي النيل عام ١٨٧٤م . وهي محطة غندوكرو
 ولابورية ، وسومبي وفانيكو وفويرا وأوروندجاني ، بالإضافة إلى بحيرة البرت
 وبحيرة فيكتوريا وتوجد خلف صفحة ٢٦٤ .

الظواهر الطبيعية ، من وديان وتلال ومدقات وأشجار ، وكتب رؤوف باشا تقريراً شاملاً أورد فيه وصفاً دقيقاً للقبائل الصومالية (قبائل العيسى) كمالقى انضوء على كافة أحوالهم من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وتناول في تقريره وصفه لمدينة زيلع وهرر ، ورسم أيضاً خريطة لخليج عدن وأخرى لبلدة هرر (٢٠) .

بعد أن تم لاسماعيل باشا الاستيلاء ، على الساحل الصومالى ، قرر أن يرسل حملة كشفية أخرى ، الى أفريقية الشرقية ، وذلك لضمها للسيادة المصرية حتى يمكن له أن يربطها بمنطقة أعالي النيل (٢١) ، ويرجع تاريخ هذه المسألة الى عام ١٨٧١ ففى هذا العام قرر اسماعيل أن يرسل الى مومباسا حملة كشفية تحت قيادة بردى باشا Purdy Pasha ومنها تتجه الى بحيرة فيكتوريا ، مارة بين جبل كينيا وكلينججارو ، وعلل اسماعيل السبب فى إرساله لهذه الحملة بأنه اراد أن يتقذ السير صمويل بيكر من الكارثة التى تعرض لها ، وكان اسماعيل فى الحقيقة يبغى من وراء ذلك عدم إثارة الراى العام العالمى ضده ، ولكن لم يكتب النجاح لهذا المشروع لسبب أو لآخر (٢٢) .

لم يستمر هذا المشروع فى طى النسيان ، بل نجد اسماعيل يرسل فى عام ١٨٧٥ حملة عسكرية الى شرق أفريقيا وكانت هذه الحملة تحت قيادة ماكيلوب باشا ، وذلك لكشف منطقة مصب نهر الجوبا وضمها الى السيادة المصرية ومنها تخترق الحملة أراضى أوغندا الى منطقة أعالي النيل ، لكى تقابل القوة العسكرية التى يقودها غردون باشا ، مدير خط الاستواء (٢٣) .

كان اسماعيل يقصد من وراء ذلك ربط الاملاك المصرية فى أعالي النيل بأفريقية الشرقية ، بالإضافة الى توسيع أملاكه فى أفريقيا مما يؤدى بالتالى الى سهولة الاتصال بالواسط القارة الأفريقية .

(٢٠) تقرير محمد رؤوف باشا - المتحف الحربى ، تحت رقم ١٦٢٣ فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦ م .
(٢١) د. جلال الدين مصطفى يحيى ، المصدر السابق ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢٢) د. جميل عبيد : المصدر السابق ص ١٢٨

بعد أن اقتنع اسماعيل بوجهة نظر غردون ، أعد حملة عسكرية مكونة من ٥٥٠ جنديا ، تحت قيادة ماكيلوب باشا ، الذى كان برفقته كل من الكونونيل شايو لونج ، الذى عهد اليه بقيادة القوه الحربية التى سوف تنجيه من منطقة نهر الجوبا الى المديرية الاستوائية ، والضابط عبد الرازق بك ناظر مدرسة البحرية المصرية ورضوان باشا وقد زودت هذه الحملة بعدد من السفن المصرية مثل الجعفرية ، الصاعقة ، ومحمد على ، ولطيف وطنطا ، ودسوق ، وقد توجهت هذه السفن فى ١٩ سبتمبر عام ١٨٧٥ وبعد أن اكتمل اعدادها توجهت من السويس الى بربرة وهناك زودت بها يلزمها من المياه انعذبة ومن بربرة اتجهت الى رأس حافون ، وهناك قابل شيخها قائد الحملة وطلب منه دخول بلده تحت السيادة المصرية ، وقد وافق القائد على ذلك ومنحه -لم مصر ليرفعه فوق بلده ايذانا بوضعها تحت السيادة المصرية وقد نعرف ماكيلوب على جميع النواحي فى هذه البلدة ، ومن بعدها اتجهت الحملة الى براوة ، وفيها قابل قائد الحملة سكانها ، الذين قدبوا اليه التباسا موقعا منهم يطلبون فيه دخولهم فى حوزة الحكومة المصرية (٢٣) ، وقد قبل ماكيلوب ذلك ، وكانوا قد افهموه بأن سلطان زنجبار كان يحصل منهم على العشور فى نفس الوقت كان لا يستطيع حمايتهم من غارات البلدان المجاورة لهم عندئذ ترك ماكيلوب قوة عسكرية من جنود الحملة فى هذه البلدة ، كانت بمثابة حامية عسكرية . بعد ذلك اتجهت الحملة الى قسمايو ، التابعة ايضا الى سلطان زنجبار وقد رحب سكانها بالسيادة المصرية عليهم وبالدخول فى حوزة مصر .

وقد وصف رضوان باشا منازل هذه البلدة بأنها تتكون من عدد من المساكن المبنية من خشب وأوراق جوز الهند ، المستوردة من مدينة لامو ، الواقعة الى الجنوب من بلدة براوة ، وكانت المباني الحجرية فيها معدومة تماما ، ولكن رغم هذا فان قسمايو كانت مركزا تجاريا هاما ، فكان التجار يأتون اليها من الهند وزنجبار ومسقط ، وكان تجار الهند يحضرون معهم الارز والبصل وقصب السكر وكان تجار زنجبار يحضرون معهم التمر والذرة وكان يرد اليها من داخل افريقيا المسلى والصمغ وريش النعام .

(٢٣) انظر الالتماس المقدم من شيوخ براوة بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا ، للمؤلف .

وكانت الحملة قد اتجهت بعد ذلك لاكتشاف بلدتي لامو وفرموزا ، لكي يقف قائدها على أحوالهما ، وكان قد قابل كثيرا من شيوخ هاتين البلديتين وكان السكان قد طلبوا من ماكيلوب أن يدخلوا في حوزة الحكومة المصرية ، ووافق قائد الحملة على ذلك (٣٤) .

لم ترض بريطانيا عن الوجود المصري في تلك البلدان ، لأن ذلك يتعارض مع مصالحها فوقفت بكل قواها ضد رغبة اسماعيل ، واستخدمت في ذلك المستر كريك قنصلها في زنجبار ، حيث قام بتحريض سلطان زنجبار بأن يعمل من جانبه على ضرورة إجبار المصريين على الانسحاب من البلاد ، التي احتلها في إفريقيا الشرقية .

ونتيجة لهذا الضغط قرر اسماعيل سحب قواته من هذه البلاد وهو رغم ، وتم ذلك بالفعل في ٢٠ يناير عام ١٨٧٦ ، وبعد ذلك عقدت معاهدة بين مصر وبريطانيا ، تم بمقتضاها تحديد مناطق النفوذ المصري في إفريقيا الشرقية ، بحيث تضمن المنطقة التي تبدأ من شمال سواكن وحتى رأس غردفوى .

لم تقف جهود اسماعيل الكشفية عند هذا الحد بل قرر في ٣ نوفمبر عام ١٨٧٧ ، أن يرسل بعثة كشفية بقيادة البكباشي محمد مختار باشا ، وذلك لكشف بلاد الأوجادين أو بلاد الجاديبورسي ، وقد تمكنت هذه البعثة من القاء الضوء على طبيعة هذه البلاد وعلى أحوال سكانها ، ورسم محمد مختار خريطة لرأس غردفون (٢٥) .

تعتبر حركة الكشوف الجغرافية المصرية ، في إفريقيا في عصر اسماعيل ، من أهم إنجازات الوجود المصري في تلك الفترة وخير دليل على ذلك ما قاله بعض القادة والكتاب عن هذه الحركة الكشفية ، ففي هذا الصدد قال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصري مانصه :

(٢٤) د. جلال الدين يحيى ، المصدر السابق ص ١٧٨ — ١٨١
(٢٥) Mohamed Moktar : un reconnaissance au pays de Ga-
duboursis. Bul. Soc. Kh. Geog. N. 7. PP. 5-16.

« أصبح الطريق مفتوحا أمامنا من لندن وحتى بحيرة البرت نياتزا ،
ويمكن قطع هذه المسافة في ٧٣ يوما ، وأن الخطوط التلفزيونية قد انشئت .
ووصلت الى بلدة فوجا في غرب السودان » (٢٦) .

وأضاف بنولا بك Bonola Bey عضو الجمعية الجغرافية المصرية
ما نصه :

« استطاعت مصر أن تدهش العالم بجرأة اكتشافها وسرعة فتوحاتها ،
ودقة معلوماتها في أفريقيا ، ولا يمكن لأحد أن ينكر فضل مصر على هذه البلاد .
التي تم فتحها ، وبصفة خاصة السودان الذي عاش أمجد أيامه تحت الحكم
المصري ، ويذكر أيضا أن ملوك مصر ، أقاموا السلم بين قبائل البجة والعرب
في السودان الشرقي والأوسط ، وسيطروا على كردفان ودارفور ، اللتين
لم يدخلهما أحد من قبل ذلك ، وبلاد نيام نيام ، التي كان اسمها فقط يحيط
بأسطورة بن الرعب ، وحرر قلعة التعصب الأعلى ، فبفضل هذه الكشوفات
استطاع العلم والتجارة أن يدخلوا ، الى هذه المناطق النائية . وأن تفتح
اتفاق جديدة للنشاط الانساني في أفريقيا ، وأن يستتب الأمن والاستقرار
في كل المناطق التي فتحتها مصر ، بحيث أصبح الرحالة والتجار يذهبون
الى قلب أفريقيا ، دون خوف من جانب الوطنيين ، فقد محى ظلام البربرية
رحلت محله نور المدنية الحديثة ، وقد اعترف العالم المنحضر بهذا العمل
الرائع من جانب مصر » (٢٧) .

وأضاف أبات باشا Abbat Pacha ما نصه :

(٢٦) انظر جلسة الجمعية الجغرافية المصرية — المنعقدة يوم ١٧ فبراير
عام ١٨٧٨ — المجلد الأول ص ١٥ .

Bonola Bey : L'expédition Egyptien en Afrique. Bul.
Soc. Kh. Geog. Serie II. N. 8. PP. 425-429.

(٢٨) انظر محضر جلسة الجمعية الجغرافية المصرية يوم ١٧ فبراير
عام ١٨٧٨ ، من مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، المجلد الثاني ص ٧٩٥

« لقد تمكنت الحكومة المصرية من تعمير المدن وتمهيد الطرق ومد السكك الحديدية بين مصر والسودان التي عادت على المواطنين بالرخاء » (٢٨) .

واضح من اقوال هؤلاء الكتاب ان الكشوف المصرية في افريقيا في عصر اسماعيل ، كان لها اثر فعال في حياة شعوب هذه البلاد ، لانها ازاحت الظلام والجهل والتخلف ، وادخلت بدلا من كل هذا الى هذه البلاد نور الحضارة والمدنية (٢٩) .

(٢٩) لزيادة الاطلاع في هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب جهود مصر الكشفية في افريقيا في القرن التاسع عشر للمؤلف .

obeikandi.com

الفصل الثالث عشر

نظام الحكم المصرى فى البلاد الأفريقية (عصر اسماعيل)

لقد تضمن نظام الحكم المصرى فى السودان ، وفى بعض البلدان الأفريقية الأخرى ، فى هذه الفترة عدة مظاهر حضارية ، كانت على جانب كبير من الأهمية ، وكان من هذه المظاهر انتشار الأمن فى ربوع هذه البلاد ، وانتشار التعليم والقضاء والصحة والعمارة . وسوف أتناول الحديث عن كل مظهر من هذه المظاهر على حدة :

١ - الأمن :

الأمن ضرورى لحماية أفراد المجتمع وممتلكاتهم من السلب والنهب ، ومن عبث الخارجين على القانون والسلطة ، فبدون الأمن تنتشر الفوضى والانهيار وعدم الاستقرار والخوف ، ونتيجة لذلك نجد أن اسماعيل حرص على أن يعمل من جانبه على نشر الأمن فى ربوع البلاد التى خضعت للسيادة المصرية ، وذلك بالقضاء القبض على اللصوص وقطاع الطرق ، ووضعهم فى السجون ، ودلل على ذلك ببعض الأمثلة التى نذكرها على سبيل المثال وليس الحصر ، والتى منها ، أنه عندما انتفض اللصوص فى السودان ، والبالغ عندهم ٣٠٠ شخص من الأتقياء ، على قبائل الدنكا والشلك ، وسلبوا مواشيهم ، وأسروا أولادهم ، لذلك قام مدير النيل الأبيض بمطاردتهم والقضاء على بعضهم ، وتمكن البعض الآخر من الهرب ، وكان رجال الأمن ، قد تمكنوا من قتل أحمد أبو شيبه ، والقضاء القبض على محمد عيسى الذى نفى إلى فازوغلى ، وكانا هذان الاثنان من زعماء اللصوص .

وكان مدير النيل الأبيض قد صادر ما مع اللصوص من مواشى إلى جانب مديريته ، وهناك قام بتوزيع بعض المواشى والعبيد على الموظفين ، والجنود

الذين اشتركوا في مطاردة اللصوص ، واحتفظ لنفسه بالباقي ، ولكن لما علم اسماعيل بهذا التصرف من جانب المدير ، عزله من منصبه وعين بدلا منه مديرا آخر ، وفي هذا الصدد يخاطب الخيو اسماعيل حكمدار السودان بقوله ما نصه :

« ان من أهم واجبات مدير البحر الأبيض هو حفظ الأمن في تلك الجهة ، وقطع دابر الاشقياء والاشرار والسعى الدائم الى عمران مديريته ، واسعادها ، جاعلا ذلك نصب عينيه ، عاملا على تحقيقه » (١) .

يفهم من هذه العبارة ان اسماعيل كان جادا في حفظ واستقرار الأمن في السودان فنجده لما علم بتصرف واهمال مدير النيل الأبيض بادر فأمر بعزله من وظيفته وارسله الى فازوغلى ليسجن هناك ، حيث يقوم بالاعمال الشاقة لكي يكون عبرة لغيره (٢) .

وعندما تمرد جنود مديرية التاكة (٣) ، لعدم صرف مرتباتهم نتيجة لسوء

(١) دفتر ٥٥٨ ، معية تركى ، وثيقة ٣٣ ، ص ٦٣ في ربيع ثان سنة ١٢٨٣ هـ الموافق ١٨٦٦ م .

(٢) نفس المصدر .

(٣) التاكة هي إحدى بلدان السودان الشرقى ، والتي يقطنها عدد من قبائل البدو الرحل ، وكانت المسافة بين موطن كل قبيلة وأخرى تتراوح فيما بين ٣ ، ٧ ، ٩ يوما من المسير ، وكان هؤلاء السكان يعيشون في منازل مبنية من الخيش والخطب ، وكانوا يسقفونها بالحصر المصنوع من أغصان شجر الدوم ، لذلك كان من السهل على الشخص ان يقوم بتقويض منزله ثم يحمله على ظهر بعيره ، ويقيم في مكان آخر وكانوا يزرعون الذرة التي يحصلون منها على الخبز ، الذي يتناولونه قبل ان يتم نضجه ، ليسهل تكسيره ، وكانوا يتناولون ايضا الملسى والجبن واللبن واللحم . وكانوا يتسلحون بالمدى والحرا ب ، وكان القليل منهم يتسلح بالبنادق الغير متوفر لها خراطيش ، وكان ٥٠٪ منهم يتكلمون اللغة العربية التي دخلت الى بلادهم عن طريق التجار الذين كانوا يذهبون الى الحجاز واليمن والى شمال أفريقيا . انظر الوثيقة ٣٩ رقم ٢٨ في ١١ جهاد اول سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٦٦ م من مخطوط أبحاث السودان .

١٤ الاحوال الاقتصادية في المديرية ، رغبوا الخروج مع ضباطهم لجمع الضرائب الخاصة بالمري ، وثارت ثائرتهم ، وقتلوا ، ١٦ ضابطا من ضباطهم ، وحاولوا الاستيلاء على مبنى المديرية والجبخانه ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، وكانوا قد نهبوا كل مايقع تحت ايديهم من اموال الاهالى والتجار ، مما اضطر هؤلاء الاهالى والتجار الى ترك منازلهم والهروب بعيدا ، خوفا من بطش هؤلاء الثوار ، الذين بلغ عددهم ٢٣٩٦ جنديا ، وكانت القوات الموالية للحكمدارية قد تمكنت من القضاء على هذه الفتنة وقتلت من المتمردين نحو ١٦٣٧ جنديا والقت القبض على ٧٥٩ جنديا (٤) ، وكان من ضمن هؤلاء المقبوض عليهم صاغ تول واحد ، ويوزباشيان ٦ ، باشجاويشا ٣٦ ، شاويشا ١٧٣ ، امباشيا (٥) .

وكان هؤلاء المتمردون قد قاموا بقتل البكباشى خطاب افندى والصاغقول اغاسى احمد اغا ، وثمانية يوزباشية ، و٦ ملازمين ، والذين من الجنود النظاميين (٦) ، وكان قد نتج عن هذا التمرد اضطراب الأمن وانتشار الفوضى والجوع والمرض بين السكان في معظم انحاء المديرية ، مما اضطر الاهالى الى الفرار الى قمم الجبال والمناطق النائية ، تاركين من خلفهم منازلهم واماوالم (٧) . وبعد أن تم القبض على المتمردين أمر الخديو اسماعيل بمحاكمتهم ، أمام محاكم عسكرية ، كى يكونوا عبرة لغيرهم وكى يستتب الأمن والنظام في ربوع البلاد ، وقد قسمت عقوبتهم الى درجات ثلاث :

— عقوبة الدرجة الأولى وتقضى بالاعدام للذين اشتركوا في الثورة ، سواء القى القبض عليهم او ظلوا هاربين بعيدا .

— عقوبة الدرجة الثانية ، وتقضى بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وذلك للذين اشتركوا في التمرد ، وتقرر عدم الاعراج عنهم الا اذا اصدر الجناب

(٤) وثيقة ٣٥/٣١ في ٢ جماد ثان سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(٥) دفتر ٥٥ معية تركى ، وثيقة ١٥ ص ١٥ . في ٢ جماد آخر سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(٦) وثيقة ٣٤/١١ في ٢ ربيع اول سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(٧) وثيقة ٢٩/٣٥ في ١٧ جماد اول سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

العالى عفووا عابا واشترط أن يقيد هؤلاء بالسلاسل ، ولا يحصلون الا على وجبة واحدة من الطعام في اليوم ، كما لا يحصلون الا على ثلاث قمصان . من القماش الأبيض في السنة ، وتقرر أن يقوموا بتمهيد الطريق الذي يربط التاكة ، بسواكن ، وكذلك يقومون بحفر الابار ، وبتجديد مباني الحكومة ، وفي حالة محاولة أحدهم الفرار يطلق عليه الرصاص في الحال (٨) ، وعلى مرأى من ذويهم (٩) .

— عقوبة الافراج عن الأشخاص الذين اجبروا على الاشتراك في التمرد وخاصة صفار السن .

وقد انتهت المحاكمة الى اعدام الأعداد التالية : —

- واحد يوزباشى (١٠) .
- اثنين أمين بلوك .
- تسعة باشا—جاوبش .
- سبعة وعشرين شاويشا .
- واحد وثمانين امباشيا .
- ١٩٩ جنديا (١١) .

وبالإضافة الى ذلك فان المحاكمة انتهت أيضا الى سجن ٤٠٠ جندي ، واعفاء ٥٥٩ جنديا آخرين كانت قد ثبتت براءتهم ، وعفى عن ٣ شاويش ، وسبعة امباشية ، وواحد بلوك أمين (١٢) .

(٨) دفتر ٥٥٨ معية تركى ، وثيقة ١ ص ٦ في غرة جماد اول ١٢٨٢ .
الموافق ١٨٦٥ م .

(٩) دفتر ٥٥٨ معية تركى ، وثيقة ٦ عام ١٨٦٥ م .
(١٠) محطة ٣٦ معية تركى وثيقة ٢٤٥ في ١٠ شعبان ١٢٨٢ الموافق .
١٨٦٥ م .

(١١) وثيقة ٣٧/٦١ في غرة رمضان سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥ م .
(١٢) نفس الوثيقة .

طلب اسماعيل بعد ذلك من حكامدار السودان أن يعمل على عمران البلاد
وفي هذا الصدد يقول ما نصه :

« ان أساس المدنية والعمران ترتكز على امرين الاول حفظ الأرواح
والاعراض والأموال (اى الأمن العام) والثانى توسيع دائرة الزراعة
والتجارة والصناعة وهذا يتوقف على تسهيل سبل النقل والمخبرات ،
فابذلوا الجهد فى تهديد الطرق واصلاحها واعملوا على حفظ الأمن فيها ،
وخصوصا العدد الكافى من الهجائة لنقل البريد (١٣) . واضح من هذا
الخطاب مدى اهتمام اسماعيل بعمران البلاد ونشر الأمن فيها .

لم يقتصر اهتمام اسماعيل على نشر الأمن فى السودان فحسب ، بل شمل
جميع المناطق الأخرى ، التى خضعت للسيادة المصرية ، مثل هرر التى كان
سكانها من البدو يأتون اليها كل أسبوع وذلك ليعيشوا بين سكانها بعض
الوقت ، وكانوا يحصلون فى أثناء تلك المدة على بعض الكساوى (ثمانية
أذرع من القماش) كنوع من الاحسانات أو الاتاوات الى جانب حصولهم
على المأكّل والمشرب والنقود ، ولكن لما خضعت هرر للسيادة المصرية ،
حرم هؤلاء من مجيئهم اليها ، فربما يرجع ذلك الى خوف هؤلاء البدو من
السلطة الجديدة ، فاضطروا الى مهاجمة المدينة ، فأمر اسماعيل مدير هرر ،
أن يجتذب هؤلاء البدو عن طريق تجنيدهم فى الجيش ، بحيث لايعطون
سلاحا ، بل يسلحون بأسلحتهم التقليدية (الحراب والنبال) حتى يمكن
الاستفادة بهم فى حفظ الأمن ، حتى لايقومون بالسرقات ، كما أمر اسماعيل
أيضا ان لاتقوم القوات النظامية ، بممارسة تدريباتها بالقرب من أماكن
اقامتهم حتى لايطنوا سوءا بالحكومة ، من أنها ستقوم بمهاجمتهم (١٤) .

بالاضافة الى ما سبق فان اسماعيل أمر بتصفية الخلافات القائمة
بين القبائل ، وذلك بارسال مندوبين من طرفه الى الجهات التى تحدث فيها

-
- (١٣) دفتر ٥٥٨ معية تركى — وثيقة ١٥ ص ١٥ فى ٢ جماد ثان ١٢٨٢
الموافق ١٨٦٥م .
(١٤) دفتر ٣٧١٦ وثيقة ١٦ ص ٣٢ فى ٢٢ صفر سنة ١٢٩٤ الموافق
١٨٧٧م .

خلافات ومنازعات قبلية (١٥) ، وقد أدت هذه السياسة بالتالى الى استتباب الأمن ، ونشر الطمأنينة بين السكان ، وأدت أيضا الى رواج التجارة وازدهار الزراعة .

٢ - التعليم :

اعتم اسماعيل بنشر التعليم فى هذه المناطق الاغريقية ، ففى عام ١٨٦٤ طلب موسى حمدى حكم دار السودان من الخديو اسماعيل أن يوافق على تعليم أبناء العمدة والمشايخ القراءة والكتابة ، وذلك للاستعانة بهم بعد اتمام دراستهم فى دواوين الحكومة ، وكان اسماعيل قد وافق على فتح مدرسة فى الخرطوم لتعليم أبناء السودان واشترط أن تضم هذه المدرسة ٥٠٠ تلميذ (١٦) .

ولكن فيما بعد تقرر أن تنشأ خمس مدارس بدلا من مدرسة واحدة ، ربما لأن المدرسة الواحدة سوف تفيد أبناء بلدة واحدة فقط ، بينما تفيد المدارس الخمس خمسة بلدان ، وكان قد تقرر أن تنشأ هذه المدارس فى كل من بربر ، ودنقلة ، وكردنان ، والتلكه والخرطوم (١٧) .

وقد زودت هذه المدارس بما يلزمها من الأدوات الكتابية المثلة فى الكتب والكراريس وغيرها من الاشياء الأخرى : وكان قد خص مدرسة الخرطوم خمسون كتابا من كل صنف من اصناف الكتب المقررة ، وخص كل مدرسة من المدارس الأخرى ٢٥ كتابا ، وزودت هذه المدارس بالمدرسين الآتى أسماؤهم بعد :

(١٥) دفتر ٣٧١٦ وثيقة ١٦ ص ٣٢ فى ٢٢ صفر سنة ١٢٩٤هـ الموافق

١٨٧٧م .

(١٦) دفتر ٥٢٦ معية سنية ، وثيقة ٢٢ ص ٨٢ فى ٢٥ القعدة ١٢٧٩هـ

الموافق ١٨٦٢م .

(١٧) دفتر ١٣٩ وارد معية سنية ، وثيقة ٥ ص ١٨ فى ٢٣ ربيع ثانى

سنة ١٢٧٩هـ الموافق ١٨٦٢م .

— محمد شاکر افندی ، الذى وزع للعمل فى مدرسة الخرطوم بمرتبة شهرى قدره ، ١٠٠٠ قرشا .

— حافظ محمد على افندی الخرطوبى الذى وزع للعمل فى مدرسة دنقلة بمرتبة شهرى قدره ، ١٠٠٠ قرشا .

— محمد افندی بوده الذى وزع للعمل فى مدرسة بربر بمرتبة شهرى قدره ، ١٠٠٠ قرشا .

— حافظ خليل افندی الذى وزع للعمل فى مدرسة التاكة بمرتبة شهرى قدره ، ١٠٠٠ قرشا .

— اسماعيل يوسف افندی الذى وزع للعمل فى مدرسة كردغان بمرتبة شهرى قدره ، ١٠٠٠ قرشا .

بالاضافة الى هؤلاء المدرسين ، زودت هذه المدارس بعدد من النظائر والمدرسين الاثراك والعمال الذين كان يتقاضى العامل منهم مرتبة شهرية قدره ، ٣٥ قرشا (١٨) .

وكان من المتبع فى حالة تقصير اى مدرس من هؤلاء المدرسين فى تأدية عمله على الوجه الاكمل ان يقوم مدير المديرية التابعة لها المدرسة بنقل هذا المدرس الى جهة اخرى (١٩) . وندل على ذلك بانه عندما اهل احد مدرسى مدرسة دنقلة فى اداء واجبه نتيجة انشغاله بالتسلية فى صيد الاسماك؛ من النيل ، نقله مدير المديرية من هذه المدرسة (٢٠) . وكان للطلبة الحق فى الانتقال من مدرسة الى اخرى (٢١) فمثلا كان الطالب ينتقل من مدرسة

(١٨) دفتر ١٣٩ وارد معية سنية ، نفس الوثيقة والتاريخ .

(١٩) دفتر ١٣٩ وارد معية سنية ، وثيقة ٥ ص ١٨ فى ٢٣ ربيع ثانى سنة ١٢٧٩هـ الموافق ١٨٦٢م .

(٢٠) دفتر ١٨٥٩ وثيقة ٤ ص ٥٢ فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

(٢١) دفتر ٣٠ صادر لغيراف رقم ١٦ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

سنار الى مدرسة الخرطوم او الى غيرها من المدارس ، وربما يرجع السبب في ذلك الى قرب المدرسة المنقول اليها الطالب من سكنه .

وكانت هذه المدارس تكلف الحكومة المصرية الكثير من الاموال ، فقد بلغت تكاليف مدرسة الخرطوم الشهرية بما في ذلك مرتبات المدرسين والعمال والتلاميذ ٨٣٤٦ قرشا ، ٤٠ بارة ، وبلغت تكاليف مدرسة كردفان ، بما في ذلك مرتبات المدرسين وتكاليف معيشة التلاميذ ٢٩١٣ قرشا ، ٧٢ بارة ، وبلغت تكاليف مدرسة بربر ٢٨٧١ قرشا ، ١٢ بارة ، وتكاليف مدرسة دنقلة ١٢٨٧١ قرشا ، وبلغت تكاليف مدرسة الفاكه ٢٩١١ قرشا ، ١٢ بارة ، وبلغت التكاليف الاجمالية لهذه المدارس ٢٩٩١٢ قرشا ، ١٣٦ بارة (٢٢) .

وكان نظام الدراسة في هذه المدارس ينقسم الى قسمين ، قسم خارجي وهو بالمصروفات ، التي تبلغ قيمتها الشهرية ريال مجبى ، لكل تلميذ (اى ستة عشر قرشا) ، وقسم داخلي ، والذي كانت الدراسة فيه بالمجان ، وكانت المواد الدراسية التي تدرس في هذه المدارس ، اللغة التركية والعربية والحساب والهندسة والرياضة ، بالاضافة الى تعليم الخط ، الذي عنى به عناية خاصة ، حتى ان الطالب كان لاينجح اذا رسب فيه ، وبعد التخرج كان تلاميذ القسم الداخلى ، يعينون في وظائف كتابية ، في السلك العسكري والادارى ، بينما تلاميذ القسم الخارجى كانوا يخرون بين التوظيف وبين الاعمال الاخرى ، وكان معظم تلاميذ هذه المدارس من ابناء المصريين ، المقيمين بالسودان ومن ابناء جنود الجهادية ، والمشايخ والعمد .

وفي عام ١٨٧٣ تقدم للامتحان من تلاميذ مدرسة الخرطوم على سبيل المثال ٢٦ تلميذا نجحوا جميعا في الامتحان ، وكانت النتيجة كالاتى :

١٥ تلميذا نجحوا بدرجة اعلى ، ١٠ نجحوا بدرجة عال ، وواحد نجح بدرجة وسط (٢٣) .

(٢٢ ، ٢٣) محافظ أبحاث السودان .

وأما عن التعليم الفني في ذلك الوقت ، فقد انشئت له مدرستان في كل من الخرطوم وكسلا ، وذلك لتعلم التلاميذ من خريجي المدارس الابتدائية فن التفراف ، وكان يشرف على تعليم هؤلاء التلاميذ أحد المهندسين ووكيل التفراف كل جهة ، وبعد أن ينهى هؤلاء التلاميذ تدريباتهم في تعلم فن التفراف ، ينقسمون الى ثلاث فئات على حسب مستواهم العلمى ، فينقسمون الى تفرافجى أول ، وثانى ، وثالث ، وقد عمل هؤلاء التلاميذ بعد تخرجهم في محطات التفراف السودانية (٢٤) . والى جانب تعليمهم فن التفراف تعلم البعض منهم فن الهندسة ، ومبادئ الحساب فكان يلحق التلاميذ من خريجي المدارس الابتدائية أيضا بترسانة الخرطوم البحرية ، وكانوا يمتكون بها عدة شهور ، وبعدها يوزعون للعمل على السفن ، التى تعمل في النيل والبحر الأحمر (٢٥) .

زيادة على ذلك فان حكام السودان طلب من الصاغ محمد شكرى أحد الأطباء الذين يعملون بمستشفى الخرطوم أن يقوم بتعليم عدد من التلاميذ خريجي المدارس الابتدائية مهنة الطب ، وقد أبدى هذا الطبيب — استعداداه للقيام بهذه المهمة ، ولكن لما عرض الأمر على الخديو اسماعيل رفض ذلك ، بحجة أن مهنة الطب تحتاج الى وقت طويل من التعليم ، ووعد بأنه سوف يرسل أطباء من مصر الى السودان لسد العجز هناك (٢٦) .

وكان الشيوخ يقومون بتحفيظ التلاميذ القرآن الكريم ، بالإضافة الى تعليمهم القراءة والكتابة ، وكان قد خصص لهؤلاء الشيوخ مكافآت مالية بسيطة لانكاد تكفى حاجاتهم وكان البعض من هؤلاء التلاميذ الذين يدرسون في المساجد يأتون الى القاهرة لتكملة دراستهم في الأزهر الشريف ، وكانت مدة هذه الدراسة تستغرق مدة تتراوح فيما بين سنتين وثلاث سنوات، وبعد

(٢٤) محفظة ٤٧ معية تركى ، وثيقة ٦٥٨ في ٩ شعبان سنة ١٢٨٧

الموافق ١٨٧٠م .

(٢٥) نفس المصدر .

(٢٦) دفتر ٥٨٤ معية تركى ، وثيقة ٢ ص ٥٨ في ٢٣ شوال سنة

١٢٨٧ الموافق ١٨٧٠م (محافظ أبحاث السودان) .

وأما عن التعليم الدينى في هذه الفترة فكان منتشرًا في جميع المساجد ،

عودتهم الى بلادهم كانوا يقومون بنشر التعاليم الدينية بين مواطنيهم كما كانوا يقومون بتفهمهم لاصول الشريعة الاسلامية ، وكان يحصل هؤلاء التلاميذ السودانيون الذين يدرسون في الأزهر على مرتب يومية قدره قرشان ، وكان قد تقرر أن يخصم هذا المبلغ على جانب حكمدارية السودان (٢٧) .

لم تكن الدراسة في مصر بالنسبة للسودانيين ، قاصرة على التحاقهم بالأزهر الشريف فحسب بل التحقوا أيضا بمدرسة المبتديان وذلك ليتعلموا العلوم الزراعية ، وبعض العلوم الأخرى ، وكان البعض من التلاميذ الذين التحقوا بمدرسة المبتديان كبار السن والبعض الآخر منهم كان صغير السن ويبدو أن التلاميذ كبار السن كانوا لا يتقدمون في دراستهم ، ولكن لما علم اسماعيل بعدم تقدمهم في الدراسة ، قرر أن ينهي دراستهم وأن يلحق أقوىاء البنية منهم بالجيش ، أما ضعاف البنية فيلحقون بالحرف والصناعات الأخرى (٢٨) .

لم يقتصر نشر التعليم في عهد اسماعيل على السودان فحسب ، بل عمل اسماعيل على نشره في بلاد افريقيا الشرقية ، فقد وافق على انشاء ثلاث مدارس في كل من سواكن ومضوع وباغوص وذلك لتعليم الأطفال القراءة والكتابة (٢٩) . لم يقتصر التعليم على هذه البلدان بل انتشر في غيرها من البلدان الأفريقية الأخرى ، ففي عام ١٨٧٦ طلب اللواء محمد نادى من الخديو اسماعيل أن يوافق على انشاء مدرسة في هرر ، وذلك لتعليم ابنائها القراءة والكتابة . واستند اللواء نادى في ذلك على النقاط التالية :

- وجود مكان واسع في هرر ، يصلح لأن يكون مدرسة .
- تتعبد المديرية بانشاء الكراسى والارائك انلازمة للتلاميذ وذلك لوفرة الأخشاب .

-
- (٢٧) دفتر ٥٧٦ وثيقة ٤ ص ٥١ في ٥ شعبان ١٢٨٤ الموافق ١٨٦٧م .
 - (٢٨) دفتر ٥٧٣ معية تركى — وثيقة ٦ ص ٦٣ في ١٠ محرم ١٢٨٥ الموافق ١٨٦٨م .
 - (٢٩) دفتر ١٩٤٦ أوامر عربى رقم ٦ ص ٣٩ في ٢٨ الحجة سنة ١٢٨٩ الموافق ١٨٧٢م .

— تتكفل الحكومة المصرية بتكملة التعليم لهؤلاء التلاميذ في مصر ، بعد انتهائهم من دراسة المرحلة الابتدائية في مدرسة هرر .

— يصرف لكل تلميذ في كل أسبوع قرشا واحدا ونصف مرتب جهادى ، بالإضافة الى منحة في كل سنة طاقيتين وطربوش وجلابية متوسطة الطول ، ومحاط أسفلها وياقتها بدوائر حمراء وسروال شبيه بالبنطلون .

— تقوم المدرسة بتدريس علم الزراعة والخط والحساب والقرآن الكريم والعقائد الدينية ، ويتم ذلك بواسطة المدرسين الذين يعينهم ديوان المعارف .

— يتكون عدد تلاميذ المدرسة من ٢٠٠ تلميذ ، وإذا زاد هذا العدد عن المعدل المطلوب ، نفى هذه الحالة تقبل الاعداد الزيادة ، على شرط ألا يتقاضوا مرتبات شهرية باستثناء حصولهم على الأدوات الكتابية (٣٠) .

يمكن القول بأن الخديو اسماعيل قد اهتم بنشر التعليم في معظم البلدان الأفريقية ، التي خضعت للسيادة المصرية في القرن التاسع عشر ، ويعتبر هذا الاهتمام بحق على جانب كبير من الأهمية ، مهما كانت النتائج ، كما أنه يعتبر النواة الأولى للنهضة العلمية في السودان فيما بعد .

٣ — الصحة :

تعتبر معظم البلاد الأفريقية ، من المناطق الحارة التي تتميز بانتشار الأمراض المتوطنة فيها ، مثل الحمى والدوسنتاريا والجدرى ، ومرض النوم ، لذلك نجد أن اسماعيل حرص كل الحرص على الاهتمام بالصحة العامة ، وذلك بإنشاء المستشفيات في بعض المديرية كالخرطوم ومصوع .

ويعتبر عدد هذه المستشفيات قليلا جدا ، إذا ما قيس بعدد المديرية ، ولكن على أية حال فإن هذه المستشفيات قامت بدور ايجابي في معالجة المرضى وفي تحصينهم ضد الأمراض الخطيرة ، وإلى جانب هذه المستشفيات فقد

(٣٠) محفظة ٤٠ مجلس الوزراء (السودان) سنة ١٨٧٦م .

خصصت الحكمدارية طبيباً لكل بلدة ، كى يقوم بالإشراف الصحى ، ومعالجة المرضى فى هذه الجهات .

لم يقف اهتمام اسماعيل بالشنون الصحية ، عند هذا الحد ، بل نجده يطلب فى عام ١٨٧١ ، من حكمدار السودان ، أن يقوم بإجراء قيد المواليد وأنوفيات ، ويبدو أن اسماعيل كان يهدف من وراء ذلك الى الوقوف على أحوال البلاد الصحية ، فإذا كانت نسبة الوفيات كثيرة فإن هذا يدل على انخفاض المستوى الصحى فى هذه البلاد ، وإذا كانت نسبة المواليد كبيرة ونسبة الوفيات قليلة ، فإن هذا يدل بدون شك على ارتفاع المستوى الصحى لهذه البلاد .

عجز حكمدار السودان عن تنفيذ إجراء قيد المواليد والوفيات ، وربما يرجع السبب فى ذلك الى قلة عدد المستشفيات والوحدات الصحية الموجودة فى البلاد ، بالإضافة الى العجز الواضح فى عدد الممرضين والمرضات والأطباء ، فقد كان يوجد طبيب واحد فى كل بلدة ، وكان لا يمكن لهذا الطبيب أن يقوم بهذه العملية بمفرده ، وذلك لصعوبة المواصلات ، وبعد البلاد بعضها عن البعض ، وكان حكمدار السودان قد ذكر انه فى حالة تنفيذ هذه العملية يجب توفير الأطباء والموظفين فى كل قسم وجبل وقبيلة وبدنة (٣١) .

لم يقتصر اهتمام اسماعيل بالشنون الصحية على السودان فحسب بل اهتم أيضاً ببعض البلدان الأفريقية الأخرى ، ففى عام ١٨٧٦ ، وافق اسماعيل على إنشاء مستشفى فى بلدة مصوع ، يسع لعدد خمسين فرداً ، وكان رضوان باشا محافظ سواحل البحر الأحمر قد طلب تزويد هذا المستشفى بالملبوسات والأمره والمفروشات ، وبعض الخفائر والأدوات الكتابية . كما طلب تزويده أيضاً بطبيب لمعالجة المرضى ، واشترط أن يكون هذا الطبيب ممن يجيدون اللغة الفرنسية ، ربما لأنه سوف يقوم بمعالجة الأجانب ، الذين يقطنون مصوع ، وسواكن وغيرها من البلدان الأخرى ، كما طلب أيضاً تزويده بباشترجى وأربعة آخرين من التمرجية (٣٢) .

(٣١) محفظة ٤٧ معية تركى ، وثيقة ٨٧٤ فى غرة الحجة ١٢٨٧ الموافق ١٨٧٠م .

(٣٢) دفتر ١١ صادر معية ، وثيقة ٦١ ص ١٥١ فى ٧ شعبان ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

٤ - القضاء :

اهتم اسماعيل بالقضاء في السودان ، وفي غيره من البلاد الافريقية الأخرى ، فقد أصدر أمرا يقضى بتشكيل مجلس شورى في الخرطوم ، يتكون أعضاؤه ، من رئيس وعدد من الموظفين والعمد ووجوه البندر ، بالإضافة الى كاتب وعامل ، وكان هذا المجلس ينعقد عند اللزوم وذلك للنظر في القضايا المعروضة عليه (٣٣) وفيما بعد أنشئ مجلس آخر في الناكدة يتكون أعضاؤه من ضباط الجهادية ، والعمد والمشايخ والعلماء والتجار (٣٤)

وفي عام ١٨٧٧ أنشئ بالخرطوم مجلس استئناف يتكون أعضاؤه من التجار والعمد ، وكان الفرض من انشائه هو استئناف القضايا المعقدة أمامه ، بدلا من إرسالها الى مصر ، وكان أعضاء هذا المجلس لا يتقاضون رواتب شهرية مما اضطرهم ذلك الى التمسك الى الحكومة ، وطلبوا اعفاءهم من دفع الضرائب المقررة عليهم ، ولما عرض الأمر على حكام السودان ، طلب من المعية السنية ، الموافقة على طلبات أعضاء هذا المجلس وطالب أيضا بمنحهم الرتبة الرابعة كتشجيع لهم على خدماتهم (٣٥) .

لم يقتصر انشاء المحاكم على السودان ، فحسب بل شمل أيضا بعض الأقاليم الأفريقية الأخرى التي كانت منضمه لمصر ، فقد أنشئ عدد من المحاكم الخصوصية في سواكن وملحقاتها ، وكانت مدة عمل هذه المحاكم سنتين فقط ، ربما لكي لا يتمكن أعضاؤها من تكوين علاقات صداقة مع المواطنين ، وربما يكون السبب في ذلك راجعا الى ان مدة هذه المحاكم هي سنتان فقط بعدها يعاد تشكيلها من جديد ، وكانت تصدر أحكاما بالاشغال الشاقة لمدة أكثر من خمس سنوات وكان من المتبع ان يرفع استئناف أحكامها أمام محكمة استئناف مصر ، وكانت هذه المحاكم تخضع الى ديوان الحتانية ، وكان

(٣٣) دفتر ١٨٥١ معية عربى ، وثيقة ٢٩ ص ٧٣ في ٢٢ القعدة سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ١٨٧١ م .

(٣٤) دفتر ٢٨٥ في ١٥ رجب سنة ١٢٩٠ الموافق ١٨٧٣ م .

(٣٥) دفتر ٢٤ معية عربى ، وثيقة ٥ ص ٩٢ في جماد اول سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٧٧ م .

يشترط في أعضائها أن يكونوا من ذوى المعرفة والاستقامة (٣٦) . وإلى جانب إنشاء محكمة سواكن فقد أنشئ مجلس خصوصى فى مصوع ، وتكون أعضاؤه من رئيس هو الشيخ عبد الله خليل ، ومن وجهاء البندر وعمده ، وكان هذا المجلس يعقد بفرض النظر فى القضايا والدعاوى التجارية فى مصوع (٣٧) وفيما بعد وجد أنه لافائدة منه مما اضطر اسماعيل الى الفائه ، وذلك لأن مصوع فيما يبدو كانت لاتوجد فيها مشكلات تجارية كثيرة (٣٨) ، ومن الملاحظ أن جميع المحاكم والمجالس الخصوصية لم تضم بين أعضائها ضباطا من الجهادية ، باستثناء التاكه التى ضم مجلسها بعض الضباط ، وربما كان يرجع السبب فى ذلك الى الثورة التى قام بها الجنود عام ١٨٦٥م .

هـ - العمارة (وإنشاء المدن) :

اهتم اسماعيل بتجديد مبانى بعض المدن ، وإضافة الجديد اليها ، وكان من هذه المدن الأبيض التى بنى بها اسماعيل مقرا للحاكم ومسجدا ومستشفى وتكنات للجند وسوقا ، وكانت منازلها فيما مضى عبارة عن تركولات مبنية من القش والطين . وأما الفاشر فقد أنشئت بها قلعتان لجنود الجهادية ، وذلك للدفاع عنها (٣٩) وإلى جانب الأبيض فقد أنشأ اسماعيل فى مصوع عددا من الأبنية الحجرية المثلة فى ديوان المحافظة والمسجد والمستشفى العسكرى وطايبية الطوبجية (٤٠) وبالنسبة لسواكن فقد أنشئ فيها مبنى لديوان المحافظة ، ومبنى للجمرى وعدد من الدكاكين والمقاهى ، والمنازل الخاصة بموظفى الحكومة ، بالإضافة الى ذلك فقد أنشئ بها عدد من الاستحكامات المثلة فى الطوابى والقلاع الخاصة (٤١) بالدفاع عنها وقد رسمت ثلاث خرائط لكل من سواكن ومصوع (٤٢) .

(٣٦) محفظة ٣٧ مجلس الوزراء (سودان) .

(٣٧) دفتر ١٨٥٢ وثيقة ٤ ص ٣ فى ١٨ رجب سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م

(٣٨) محفظة ٢٨ مجلس الوزراء (سودان) .

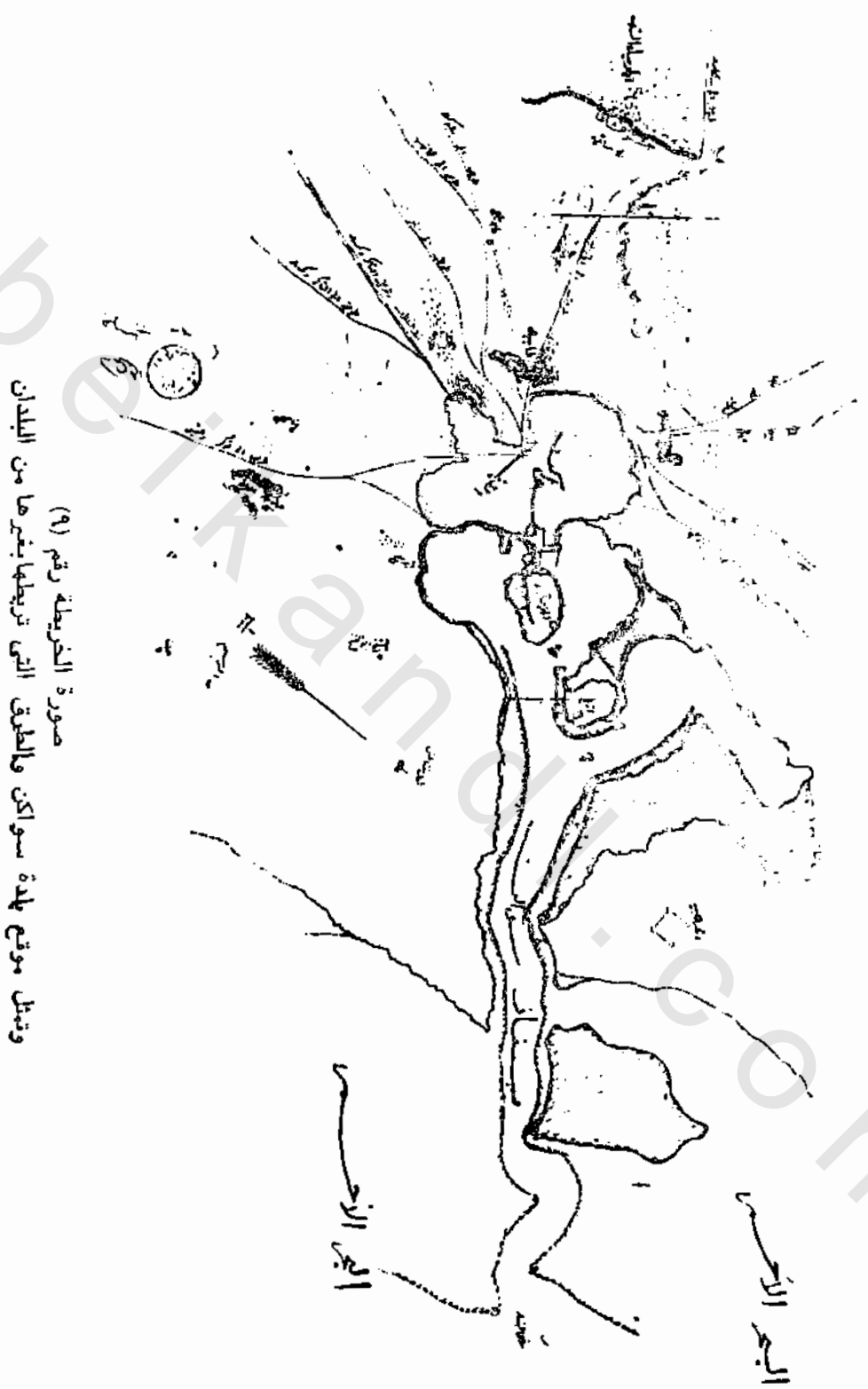
(٣٩) Report on the Egyptian province. op. cit. P. 200.

(٤٠) تقرير أحمد ممتاز باشا عن سواحل البحر الأحمر .

(٤١) د. السيد يوسف نصر : المصدر السابق صص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٤٢) انظر الخرائط أرقام ٩ ، ١٠ ، ١١ الخاصة بسواكن ومصوع

خلف صفحة ٢٨٤ .



صورة الخريطة رقم (١٠)
وتبين سواحل سواكن





صورة الخريطة رقم (١١)
وتمثل ميناء مصوع وما جاوره .

ومن المدن التي اهتم اسماعيل بها بلدة ببررة ، فقد أمر اسماعيل عام ١٨٧٢ محمد بهرام ، ان يقوم بإنشاء مدينة جديدة بجوار قرية ببررة ، بحيث تكون على أحدث النظم ، في ذلك الوقت ، وقد تمكن محمد بهرام من اتمام بناء هذه المدينة في مدة خمس سنوات - ابتداء من عام ١٨٧٢ وحتى عام ١٨٧٧ ، وقد تضمنت هذه المدينة مرسى للسفن وعددا من الأرصفة والمخازن (٤٣) كما بنى بها أيضا مسجد بلغ طول مؤذنته ٦ أمتار (٤٤) وبعد أن تم انشاؤه زود بالمياه وقد مارس السكان فيه كافة الشعائر الدينية والدعوات لولى النعم ولأنجاله الكرام (٤٥) وانشئت أيضا ببررة سلخنة وذلك ، لكى تذبغ فيها الذبائح بالطريقة الصحية ، وبلغت مساحتها حوالى ٢٣٠٠ م ، وبعد أن تم انشاؤها ، قام مدير ببررة بتأجيرها الى أحد مواطنى البلدة في مقابل أن يدفع مبلغا وقدره ٢٠٥٣ قرشا ، ٢٢٥ روية في السنة (٤٦) زيادة على ذلك فقد انشئت بها طابونة (فرن) وكان يعمل بها ثلاثة من عساكر الجهادية ، فعمل الأول غرانا وعمل الثانى خبازا وعمل الثالث نخالا ، وكان أجر العامل منهم ثلاثة قروش في اليوم (٤٧) وقد تضمنت مبنى ببررة أيضا مبنى ديوان المحافظة وانجرك والاسبتانية (المستشفى) (٤٨) وثكنات الجنود ، بالإضافة الى الفناء ، الذى عين لإدارته فى أول الأمر الخواجه كارمنوس ، الذى عين بمعرفة مورييس بك وكيل الفنائات ، ومن بعده عين لإدارته الخواجه منويل كساو ، ومعه اثنين من أبناء العرب ،

-
- (٤٣) د. محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية ، ص ١٨ .
 (٤٤) دفتر ٣٧١٤ معية عربى — وثيقة ١٥ ص ١١٥ فى ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .
 (٤٥) دفتر ٣٧١٥ وثيقة ٥٨ فى ٢٨ القعدة سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .
 (٤٦) دفتر ٣٧١٥ وثيقة ٣١ ص ١٤ فى ١٧ رمضان سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .
 (٤٧) دفتر ٢٤٢٤ صادر حكمدارية ، وثيقة ١ ص ٣١ فى ١٠ جهاد أول سنة ١٢٩٥ الموافق ١٨٧٨م .
 (٤٨) محفظة ١١١ سواحل البحر الأحمر .

ونالنا من الأوربيين ، وكان مدير هذا الفنار يقوم بتحصيل عوائد المراكب (الجمارك المقررة) وكان يحصل عن كل ترناطة قرش صاغ واحد ، وفيما بعد خفضت قيمة هذا الجمرک ، فأصبحت ٢٠ فضة ، بدلا من قرش صاغ (٤٩) ، ربما يرجع السبب في تخفيض قيمة الجمرک الى تنشيط حركة التجارة بين الأقاليم المصرية وغيرها من بلدان العالم وكان هذا الفنار وإيراداته ومصرفاته يتبع مصلحة عموم الليمانات والفنارات التي يرأسها مكيلوب ماشا (٥٠) .

بالإضافة الى ذلك فقد زودت بربرة بالمياه العذبة فبعد أن انتهى البناء من هذه المدينة ، أمر اسماعيل بتوصيل المياه العذبة اليها ، فكان من المتبع قبل ذلك أن تنقل المياه العذبة اليها ، من بئر الدوبار بواسطة البراميل الخشبية الصغيرة ، التي كانت تنقل على ظهور الدواب ، وكانت هذه العملية غير مجدية ، حيث كانت لا تفي باحتياجات السكان بالمياه ، بالإضافة الى ذلك فانها كانت عملية شاقة مما دفع اسماعيل الى مد خط من المواسير ابتداء من بئر الدوبار ، وحتى محينة بربرة الجديدة ، وبعد أن وصلت الأدوات والمهمات والعمال بدأ العمل في هذا الخط يوم ١٢ أبريل عام ١٨٧٦ تقريبا ، وانتهى منه في ٢١ يونيو من نفس العام واستغرقت مدة العمل ٦٩ يوما وبلغ طول هذا الخط ابتداء من الدوبار ، وحتى بلدة بربرة حوالى ١٢ كم و ١٢٣ مترا (٥١) وكانت المحافظة قد أنشأت حوضين صغيرين ، وذلك لتخزين المياه اللازمة للسفن والماشية والأهالى (٥٢) وكانت مياه الدوبار قد وصلت الى المسجد والمستشفى ومبنى الجمرک وديوان المحافظة والطاحونة والمخبز والمخازن وثكنات الجند والمنازل الخاصة بموظنى الحكومة (٥٣) .

-
- (٤٩) دفتر ٢٤ معية عربى — وثيقة ٥٦ ص ٦٨ في ١٩ جماد اول ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٧٧ م .
(٥٠) دفتر ٢١ معية عربى ، وثيقة ٢٧ ص ٤٩ في ٢٢ جماد ثان سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٧٧ م .
(٥١) د. جلال الدين مصطفى يحيى : مصر الأنترقية المصدر السابق ص ١٤٤ .
(٥٢) دفتر ٣٧١٥ وثيقة ٤٧ ص ٥٠ في ١٤ شوال سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦ م .
(٥٣) دفتر ٢٧١٦ وثيقة ٥ ص ١١ في ٢٦ الحجة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦ م .

لم تصل هذه المياه الى الواورات الرأسية في البحر مثل وابورات البوستة الخديوية ووابورات الأجانب ، وكذلك النقط العسكرية الموجودة بعيدا عن بربرة ، لذلك استخدمت البراميل في نقل المياه الى جميع الواورات والى الاماكن البعيدة الأخرى (٥٤) .

وكان من نتائج توصيل المياه بواسطة المواسير من الدويار الى بربرة ، أن ألغى نظام البراميل الذى كان مستخدما من قبل في نقل المياه الى سكان البلدة ، كما ضمن هذا المشروع للسكان استمرار تدفق المياه الى منازلهم (٥٥)

من الملاحظ أن بربرة حظيت بنصيب وافر عن غيرها من البلدان الأفريقية الأخرى ، يبدو لأنها كانت عامرة بالسكان أكثر من غيرها ، بالإضافة الى نشاط حركة التجارة فيها ، فكان لها علاقات تجارية مع بلاد الصومال والحبشة وعدن ، فكان يرد اليها من هذه البلاد الأرز والتمر والقمشة ، والتبناك ، والحديد والنحاس والخرز ، والتصدير ، والعاج والجلود وريش النعام والسمغ والمسلى . وكانت تقوم هى بالتالى بتصدير الفائض من هذه الواردات الى عدن (٥٦) . زد علم ذلك فان بربرة تمتعت باستقارب الأمن ورواج التجارة في ظل السيادة المصرية وربما يرجع السبب في ذلك الى استخدام العملة المصرية بدلا من « الريال المجيدى والروبية الهندى » اللذين كانا سائدين من قبل وقد بلغت قيمة العملة المصرية التى استخدمت في بربرة في عام ١٨٧٦ بنحو ٣٥٠٠٠ ألف قرش فضة ، ٥٠٠ ألف قرش نحاس (٥٧) وقد رسمت خريطة لبلدية بربرة الجديدة (٥٨) .

(٥٤) دفتر ٢٤ معية عربى ص ٧١ وثيقة ٦٦ في ١٧ جماد ثانى ١٢٩٤.

الموافق ١٨٧٧ م .

(٥٥) دفتر ٣٧١٤ معية عربى ، وثيقة ١٥ ص ١١٥ في ٢٠ رجب سنة

١٢٩٣ هـ الموافق ١٨٧٦ م .

(٥٦) محفظة ١١١ سواحل البحر الأحمر .

(٥٧) دفتر ١١ وثيقة ٢٦١ ص ١٨٣ في ٢٠ القعدة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦ م.

(٥٨) انظر الخريطة (١٢) وهى عن بقدر بربرة ، وتوجد خلف صفحة ٢٩٠



وتمثل المباني الحربية المصرية في بندر بربرة
صورة الخريطة رقم (١٢)

ومن البلاد التي اهتم اسماعيل بها كذلك بلدة هرر ، التي شيد بها — حوالي ١٠٢ منزلا بالإضافة الى عدد من الدكاكين ، ومبنى ديوان المحافظة وقد زينت بالحدائق الجميلة (٥٩) وانشئت بها أيضا طاحونة لطحن الفلال بدلا من استخدام الرحى ، وقد اشترك في بنائها كل من العامل ابراهيم وهو نجار طواحين ، ومنقريوس عوض ، وهو نجار طواحين أيضا ومحمد داؤود ، وهو نجار وقاطع أحجار ، وسالم خيري ، وهو حجار ، وكان هؤلاء العمال قد قاموا بتعليم أبناء هرر كيفية تشغيل هذه الطاحونة (٦٠) وانشئ بها أيضا مسجد ليؤدي فيه الناس الشعائر الدينية (٦١) .

ومن البلدان الأخرى التي حظيت باهتمام الخديو اسماعيل ، بلدة براوة ، فبعد وصول المصريين الى شرق أفريقيا قاموا بتشييد المخازن في منطقة نهر الجب وذلك لتخزين تعيينات قواتهم ومهماتهم ، حتى لا تتأثر بالأمطار وحرارة الشمس ، وقد استخدموا في بنائها في بادئ الأمر القماش المخصص لصناعة قلع المراكب والأخشاب التي تم قطعها من هناك (٦٢) . وكان ذلك فيما يبدو تمهيدا لإنشاء مدينة جديدة في هذه البلاد ، ويتضح ذلك جليا من قراءة المطالب ، التي طلبها ماكيلوب باشا من الخديو اسماعيل والتي تتمثل في طلبه لعدد من الأشخاص من ذوي الحرف المختلفة ، وطلبه لعدد من الوحدات العسكرية لكي تعسكر في هذه البلاد الى جانب طلبه الكثير من الأدوات المختلفة والمهمات والبذور (٦٣) .

ومن البلدان التي حظيت أيضا باهتمام اسماعيل بلدة غندوكرو ، التي تقع في جنوب المديرية الاستوائية فقد انشا اسماعيل في هذه البلدة مبنى

(٥٩) محفظة ٤٠ مجلس الوزراء (سودان) -

(٦٠) دفتر ٢٤٢٥ ، وثيقة ٤٤ ص ١٢٩ في ١٤ رجب سنة ١٢٩٥ الموافق

١٨٧٨ م .

(٦١) دفتر ٣١ معية عربى ، وثيقة ٢ ص ٣٤ في ١٧ جماد اول سنة

١٢٩٥ هـ الموافق ١٨٧٨ م .

(٦٢) محفظة ١١١ سواحل البحر الأحمر .

(٦٣) انظر هذه المطالب بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية في

أفريقيا للمؤلف .

لديوان المديرية ، وعدا من المخازن ، كما بنى بها ترسانة صغيرة لتركيب السفن (٦٤) التى استخدمت للسير فوق مياه بحيرة البرت الى جانب تشييد عدد من المحطات على طول نهر النيل ابتداء من فاشودة وحتى غندكرو . وقد كانت بمثابة عاصمة للجنوب .

وفى ختام هذا الباب ، يمكن القول بأن عصر الخديو اسماعيل كان من أهم العصور التاريخية بالنسبة للوجود المصرى فى افريقيا ، ففى ظل حكمه ، تحقق للبلدان الافريقية الكثير من الأعمال الحضارية فى كافة المجالات، سواء أكان ذلك فى مجال الكشف الجغرافية ، أم فى بناء المدن ، أو فى مد السكك الحديدية أو فى مجال الادارة والأمن والصحة والتعليم . فهو بحق يعتبر من أزهى عصور التوسع المصرى فى افريقيا فى القرن التاسع عشر .